

الفصل الأول

نهاية العزلة وإرهاصات عصر مييجي

١- الانفتاح على الغرب وفوضى نهاية الباكفو:

فى النصف الثانى من القرن السابع عشر حدثت ثورة مدنية فى إنجلترا تعيد للمواطن العادى حقوقه المدنية. وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بدأت الثورة الصناعية متمركزة على صناعة النسيج. ثم ازدادت بشكل سريع قوة الإنتاج الصناعى عن طريق استخدام الماكينات التى تعمل بالبخار كقوة محرّكة. وقد وصلت مثل هذه الحركات السياسية والاقتصادية إلى باقى الدول الأوروبية وكذلك وصلت إلى أمريكا. وعلى خلفية امتلاك قوة إنتاجية وأخرى عسكرية متزايدتين ومتعاضمتين، فقد أغرى ذلك القوى الأوروبية والأمريكية بزعامة إنجلترا بالتقدم نحو آسيا مستهدفين فى ذلك حماية أسواق منتجاتهم، وكذلك المواد الخام اللازمة لتلك المنتجات الصناعية المنتجة بطريقة ميكانيكية. وحاولت هذه القوى أن تدمج الدول الآسيوية بالقوة فى أسواق العالم الرأسمالى، وفى هذه المرحلة سقطت العديد من الدول لتصبح مستعمرات أو لتصبح فى موضع الخاضع اقتصادياً أو سياسياً لدول الغرب. وما لبث هذا المد الاستعمارى أن وصل إلى شرق آسيا وكانت نهايته فى اليابان، ثم أبحرت السفن الروسية والإنجليزية وبعد ذلك السفن الأمريكية بطريقة متكررة نحو الموانئ اليابانية. ولطالبة هذه السفن التبادل التجارى مع مختلف الدول الآسيوية فقد أدى هذا بالتالى إلى تكوّن تحركات كبرى فى الأوضاع العالمية.

وكانت الأنباء التى جاءت لليابان عن حرب الأفيون التى حدثت فى الصين (١٨٤٠م-١٨٤٢م) قد أصابت حكومة الباكفو بصدمة كبيرة. وكانت هذه الأنباء قد وصلت إلى اليابان عبر السفن الهولندية والصينية. وكانت سفن هاتين الدولتين فقط المسموح لها بالدخول إلى الموانئ اليابانية منذ وقت طويل وذلك رغم فرض الحظر على باقى السفن الأجنبية وهذا ما جعل حكومة الباكفو اليابانية إلى التخفيف من الأمر الصادر فى عام ١٨٢٥م بإطلاق النيران على السفن الأجنبية حال اقترابها من الموانئ اليابانية، وغيرته ليكون أمراً بإمداد السفن الأجنبية التى يجرفها التيار بالفحم اللازم لتشغيل السفن وكذلك بالمياه والمؤن، كان

ذلك حينما علمت حكومة الباكفو من خلال السفن الهولندية أن إنجلترا كانت قد خططت لإرسال أسطول حربي إلى اليابان بعد أن تنتهي حرب الأفيون من أجل مطالبته اليابان بالتبادل التجاري، وحاولت بذلك تجنب الوقوع في حرب ضد الدول الأجنبية. وإلى جانب ذلك أصدرت حكومة الباكفو أمراً إلى المقاطعات القريبة من خليج أيديو لعمل الاحتياطات اللازمة لحماية هذا الخليج. وكذلك عملت حكومة الباكفو على اتخاذ مختلف الإجراءات من أجل حماية الطريق الملاحي بين عاصمة البلاد آنذاك إيدو ومدينة أوساكا التي كانت تمتد العاصمة بمختلف المواد الغذائية وحماية هذه السفن التي تبخر بين المدينتين.

وفي عام ١٨٤٤م بعث ملك هولندا بخطاب ودى إلى حكومة الباكفو شارحاً فيه وناصحاً في الوقت ذاته حتى لا تواجه المصير نفسه الذي واجهته الصين بسبب حرب الأفيون وما ترتب عليها من اقتطاع هونج كونج منها بسبب هزيمتها في هذه الحرب. ولذلك نصح اليابان بأن تفتح أبوابها أمام الغرب. إلا أن حكومة الباكفو رفضت نصيحته واستمرت في سياسة فرض العزلة على اليابان. وفي عامي ١٨٤٤م و١٨٤٥م حاولت السفن الفرنسية والإنجليزية مطالبة حكومتى اليابان والصين لأن تجعلاً من موانئ ريوكيو (أو كيناوا الحالية) مرافئ لها؛ حيث إن أو كيناوا في الوقت ذاته كانت خاضعة للإدارة الثنائية لكل من الصين واليابان. وهذا يعنى مدى الضغوط التي مارستها الدول الغربية على حكومة الباكفو لفتح الموانئ والمدن اليابانية أمام حركة الملاحة والتجارة الغربية.

والذى زاد الطين بله هو دخول أمريكا حلبة المنافسة أيضاً على فتح موانئ اليابان وذلك عندما بدأت إعطاء تجارتها مع الصين اهتماماً واضحاً خاصة بعد قيامها بإجراء حركة تحديث فى ثورتها الصناعية مع دخولها القرن الثامن عشر، فطالبت اليابان أيضاً بفتح موانئها أمام سفن صيد الحيتان وكذلك السفن التجارية الخاصة بها. وكان أن حدث بالفعل أن جاء بيدل (Biddle ١٧٨٣م - ١٨٤٨م) قائد الأسطول الأمريكى فى شرق الهند إلى ميناء أوراجا فى عام ١٨٤٦م مبعوثاً من الحكومة الأمريكية قائداً لأول بعثة أمريكية لليابان لمطالبة حكومة الباكفو بإقامة التبادل الدبلوماسى والتجارى بين بلاده واليابان. ولكن حكومة الباكفو أعلمته بقانون العزلة الذى تفرضه اليابان على نفسها ورفضت بالتالى مطالبه. ولكن هذا الطلب الأمريكى لم ينقطع خاصة بعد اكتشاف مناجم للذهب فى كاليفورنيا فى عام ١٨٤٨م، وبالتالى تم إعمار المناطق القريبة من الولايات المتحدة الأمريكية بطريقة سريعة،

ولذلك خططت أمريكا لعبور أساطيلها التجارية للمحيط الهادى للتجارة مع الصين، وفى الوقت ذاته انتعش مجال صيد الحيتان فى شمال المحيط الهادى. ومن هذا المنطلق ظهرت حاجة السفن التجارية وسفن صيد الحيتان الأمريكية المسلحة للموانئ اليابانية من أجل التوقف بها وإمداد السفن الأمريكية بالوقود والمؤن، وكذلك للحماية فى أوقات الطوارئ. ونظراً لهذه الاحتياجات، فقد قام الإدميرال البحرى بيرى القائد العام لأسطول شرق الهند الأمريكى فى يونيو عام ١٨٥٣م بالإبحار نحو ميناء أوراجا اليابانى مصطحباً أربع قطع بحرية. وكان مع بيرى خطاب رسمى من الرئيس الأمريكى فى لور (١٨٠٠م - ١٨٧٤م) يطالب من خلاله حكومة الباكفو بفتح موانئها أمام التبادل التجارى أمام السفن الأمريكية. وكانت حكومة الباكفو لديها معلومات عن هذا الأمر من خلال رئيس الغرفة التجارية الهولندية، إلا أنها لم تتخذ إجراءات حاسمة تجاه ذلك. ومن الجدير بالذكر أن حكومة الباكفو لم تكن قبل ذلك تتسلم خطابات مثل تلك التى جاء بها بيرى من أية دولة أخرى عدا كوريا وريوكيو (أو كيناوا) ولكنها فى هذه المرة وبسبب الأسلوب المتشدد الذى أظهره بيرى، فقد اضطرت لتسلم الخطاب بطريقة رسمية، على أن تقوم بالرد عليه فى العام التالى، ومن ثم غادرت حملة بيرى اليابان مؤقتاً. ولم يلبث بعد ذلك بقليل أن أبحر إلى ناجاساكي المبعوث الروسى بوتاتين Putyatin (١٨٠٣م - ١٨٨٣م) مطالباً اليابان بإقرار الانفتاح لها أيضاً.

وفى يناير ١٨٥٤م أبحر بيرى مرة أخرى إلى ميناء أوراجا وهو يقود فى هذه المرة سبع قطع بحرية، وفى هذه المرة مارس بيرى ضغوطاً عسكرية على حكومة الباكفو مثل إجراء أعمال مساحة وقياس لخليج إيدو، وبالطبع كانت كل الضغوط من أجل توقيع المعاهدة مع اليابان، وبالفعل خضعت حكومة الباكفو لهذه القوة وعقدت معاهدة الصداقة اليابانية الأمريكية. ولأن هذه المعاهدة عقدت بفندق قريب من محافظة كاناجاوا فقد أطلق عليها أيضاً معاهدة كاناجاوا.

٢- معاهدة الصداقة اليابانية الأمريكية: (معاهدة كاناجاوا)

تتكون هذه المعاهدة من ١٢ مادة أهمها:

- ١ - إمداد السفن الأمريكية بما تحتاجه من الوقود والمؤن.
- ٢ - مساعدة السفن التى قد تلجأ لطلب المعونة وإنقاذ بحارتها.

٣ - فتح ميناء شيمودا (محافظة شيزوأوكا) وهاكوداتي (مدينة تقع في جنوب غرب جزيرة هوكايدو في أقصى شمال اليابان) للملاحة الأمريكية وكذلك إقامة قنصلية أمريكية في كلتا المدينتين.

٤ - إقرار حق أمريكا في امتياز الدولة الأولى بالرعاية ومن جانب واحد أى ليس لليابان هذا الحق، وكذلك يحق لأمريكا أن تحصل بطريقة أوتوماتيكية على أى امتياز تعطيه اليابان لأية دولة أخرى غير أمريكا قد يفوق على الامتيازات التي أعطتها اليابان لأمريكا من خلال معاهدات أبرمتها معها.

ومن الجدير بالذكر أنه حتى توقيع معاهدة كاناجاوا وما بين زيارة بيرى الأولى في يوليو ١٨٥٣م ويناير ١٨٥٤م وقع جميع قادة اليابان وكذلك أتباعهم من رجال الباكفو في ارتباك وفوضى كبيرين وأصبحت أفكارهم تهيم في فوضى عظيمة، وكانوا في قرارة أنفسهم يريدون استمرار الأوضاع القديمة من حيث إبعاد الأجانب عن اليابان ولكن في الوقت نفسه لم يكونوا يملكون القوة الكافية لتنفيذ هذا الهدف ولذلك حاولوا تجنب الحرب مع الدول الغربية لقناعتهم التامة بعدم قدرتهم على مواجهة الدول الغربية عسكرياً. ولذلك فعند مقدم بيرى لليابان في زيارته الثانية وضعت حكومة الباكفو أمام عينها الموقف المتصلب لبيرى وعزمه على استخدام القوة إذا لم تفلح المفاوضات مع اليابانيين من أجل فتح موانئها أمام السفن الأمريكية. وعليه فقد أعدت حكومة الباكفو خطة هي في مفادها أنه لا مفر من التبادل التجاري مع الأمريكان. وكان قائد الجناح الذى يدعو لعدم إدخال الأجانب هو طولوجاوا نارى آكى Tokugawa Nariaki (١٨٠٠م - ١٨٦٠م) الذى حاول قدر جهده أن يتملص من توقيع معاهدة مع بيرى متخذاً في ذلك سياسة زئبقية تدعى سياسة بوراكشى «Burakashi». ولكن نارى آكى لم يستطع تنفيذ هذه السياسة واضطر إلى إلقاء لافتة «طرد الأجانب» جانباً وأصبح واضحاً وجلياً أن سياسته قد فشلت. وفي ٣٠ فبراير ١٨٥٤م أرسلت حكومة الباكفو اثنين من رجالها إلى مدينة كاناجاوا.

وعن خطة التنازلات التي وضعتها حكومة الباكفو فهي كالتالي:-

١ - تعرض حكومة الباكفو فتح موانئ اليابان في خلال خمس سنوات وإذا تم رفض هذا تخفض الفترة إلى ثلاث سنوات.

٢ - يكون ميناء ناجاساكي هو فقط الميناء المطروح للتجارة مع الغرب أو بالأحرى أمام السفن الأمريكية. وإذا تم رفض هذا العرض يضاف إليه ميناء شيمودا.

وكان لمجىء بييرى الثانى وقع الصدمة على أهالى أيدو وإن لم يكن بالطبع مثل المرة الأولى، وعلى الرغم من الهدوء النسبى الذى ساد أنحاء المدينة، فإن مشكلة أخرى ظهرت فى الأفق ألا وهى طول فترة مكوث الأسطول الأمريكى التى أدت إلى زيادة نفقات الحراسة التى كان يتناوب عليها العديد من المقاطعات، وسرعان ما أُلقيت تبعات هذه النفقات على عاتق الأهالى. ولم تقتصر معاناة الأهالى على ذلك فقط، بل إن الأماكن التى كان يرسو بها الأسطول الأمريكى كانت كل أنشطة الحياة وغيرها تتوقف بها. والأدهى من ذلك أن حمالى السفن الأمريكية كانوا عندما ينقلون متاع السفن إلى البر فإنهم لم يكونوا يكتفون بالأماكن التى عليهم نقل المتاع إليها بل كانوا يذهبون بعيداً ويتجولون فى القرى المحيطة ويطاردون النسوة بهذه القرى. فلم يجد سكان هذه القرى سوى إغلاق أبواب بيوتهم والاختفاء خلفها خوفاً من هؤلاء الحمالين الأشقياء. بل إن النساء اللاتى كن يجمعن القواقع للمساعدة على جمع قوت بيوتهن لم يكن يستطعن الذهاب إلى شاطئ البحر بسبب هؤلاء الحمالين وغيرهم، فكانت أحوال العمل للكثيرين تسير بصعوبة على غير المعتاد، مما أدى إلى سوء الأحوال فى القرى المحيطة. ويذكر أن هذا الوضع السيئ وصل إلى أقصى حدود محافظة كاناجاوا فى قرى الصيادين بالمدينة الساحلية ساجامى Sagami لكن الطريف أن سكان أيدو والقرى القريبة كانوا يتوقون لرؤية سفن بييرى السوداء وكان عليهم أن يسافروا عبر طريق يصل من ٤٠ - ٨٠ كيلو حتى يروا سفن بييرى السوداء. لدرجة أن الحكومة أصدرت تصريحاً حذرت فيه المواطنين من الذهاب إلى كاناجاوا حتى لو كان لديهم أعمال أو أشغال هناك.

وعلى الرغم من مظاهر القوة والإجبار التى جاء بها بييرى إلى اليابان فإنه لم يحاول فى بداية الأمر فرض المعاهدة بالقوة، فقد وافقت حكومة الباكفو بسلاسة على طلب بييرى بإمداد السفن الأمريكية بالمؤن والفحم (الوقود) اللازم لها، وكذلك على مساعدة السفن والتجار الذين يطلبون المساعدة، ولكنها - أى حكومة الباكفو - رفضت طلب بييرى بالتجارة بين البلدين. وهنا تراجع بييرى عن طلبه دون إبداء معارضة، ولكنه فقط قدم للباكفو وثائق معاهدة الصداقة والتجارة الأمريكية الصينية كى تكون بمثابة مرجع لحكومة الباكفو لتضع على نسقها وثائق المعاهدة الأمريكية اليابانية المزمع عقدها.

وكانت المشكلة الكبرى فى المفاوضات هى أية موائى يمكن لليابان فتحها للتجارة مع الأمريكان. ولكن فى النهاية قررت الباكفو فتح ميناء شيمودا الواقع بمدينة إيزو بمحافظة

شيزاوكا، وميناء هاكوداتى الواقع فى جزيرة هوكايدو فى أقصى شمال اليابان، ووافق بيرى على هذا الترشيح. وكانت وجهة نظر بيرى أنه حقق بهذا هدف حملته على اليابان. وفى الخامس عشر من فبراير ١٨٥٤م أرسلت من أمريكا آلات تلكس وقطارات بخارية وساعات وتلكوبات وأسلحة صغيرة وسيوف غريبة وآلات زراعية وغيرها إلى الشوجون وإلى المفاوضين اليابانيين. ومن بين التجارب التى أذهلت اليابانيين تلك التى عرضها الأمريكيون وذلك بإجراء اتصال تلغرافى عبر الأسلاك لمسافة ١,٦ كيلو متر، وكذلك عندما عرضوا لتجربة نموذج قطار بخارى يسير على قضبان حديدية.

هذه التجارب أثارت إعجاب اليابانيين ودهشتهم بلا ملل من تكرارها وكان كلما تصدر صفارات القطار تصدر معها صيحات إعجاب اليابانيين ودهشتهم. وبذلك أثارت هذه التجارب فضول اليابانيين واستحسانهم. ورداً على ذلك وفى الثامن والعشرين من الشهر نفسه أرسلت الهدايا من الشوجون إلى الرئيس الأمريكى والإدميرال بيرى رداً على الهدايا التى أرسلت من أمريكا. ومن بين هذه الهدايا: محبرة يابانية مُذهّبة، ومكتب مطلى بالورنيش الأسود، وزهريات، وحرير وغيرها. وإلى جانب ذلك أقيم عرض للمصارعين اليابانيين الذين يفخرون بقدرتهم فى عرض للرياضة اليابانية التقليدية «السومو».

وفى غضون هذه الرسميات والمجاملات تم عقد معاهدة الصداقة اليابانية الأمريكية فى ٣١ / ٣ / ١٨٥٤م، ولأنها وقعت فى محافظة كاناجاوا، فقد أطلق عليها أيضاً معاهدة كاناجاوا نسبة للمكان الذى وقعت فيه والتى تحدثنا عنها توأ.

هكذا لعب بيرى بالنسبة لليابان الدور الذى لعبه نابليون بالنسبة لمصر قبل ذلك بأكثر من نصف قرن مع اختلاف شديد فى طبيعة هذا الدور، فبيرى فتح أبواب اليابان فقط أمام التعامل مع الغرب ولم يرتكب الفظائع التى ارتكبها نابليون فى مصر. صحيح أن اليابان قدمت تنازلات لأمريكا ولغيرها من دول الغرب من خلال المعاهدات الظالمة التى فرضت عليها وكما سنرى فيما بعد، إلا أن هذا لا يمكن مقارنته بما ضحت به وعانت منه مصر من جراء الحملة الفرنسية على الرغم من أنها كانت بالفعل الناقوس الذى أيقظ المصريين من أجل الولوج إلى العصر الحديث.

بالطبع لم تكن بقية الدول الأوروبية لتسكت عن مطالبة اليابان بعقد معاهدات مثلما فعلت مع أمريكا، فلم تمض سوى خمسة أشهر حتى عقدت إنجلترا معاهدة الصداقة

اليابانية – الإنجليزية Nichieiwashin Jōyaku فى شهر أغسطس ١٨٥٤م. وقد تم عقد هذه المعاهدة بمنتهى السهولة وذلك بالطبع بسبب عقد اليابان لمعاهدتها للصدقة مع أمريكا. وكان الدافع الأكبر لإنجلترا لعقد معاهدتها مع اليابان هو تنافسها الحربى مع روسيا، فقد طورت روسيا من تحركاتها العسكرية فى بحار الشرق الأقصى.

وفى هذه الأثناء كانت إنجلترا تخوض مع تركيا وفرنسا حرب القرم ضد روسيا (١٨٥٣م – ١٨٥٦م)، وهذا بالطبع أوجد ضرورة قصوى لدى بريطانيا لكي يكون لها مرافئ لسفنها فى اليابان، حتى تستطيع مواجهة التحركات العسكرية الروسية. وعليه، فقد أرسلت إنجلترا بقائد أسطول الهند الصينية الشرقى وهو الجنرال ستالينج إلى اليابان. وبالفعل نجح هذا القائد البحرى أن يعقد معاهدة للصدقة مع اليابان كما أسلفنا القول، إلا أن هذه المعاهدة جاءت فى صيغة عسكرية إلى حد كبير أكثر منها تجارية كما كانت تريد إنجلترا.

أما روسيا فى الحقيقة كانت سابقة لإنجلترا فى محاولتها لعقد معاهدة للصدقة مع اليابان، فكانت روسيا قد أرسلت أسطولاً بحرياً مكوناً من أربع قطع بقيادة بوتشاتشين وذلك بعد شهر واحد فقط من مجيء بيرى إلى أوراجا، أى فى شهر يوليو من عام ١٨٥٣م، ولكن نظراً لاحتدام الصراع فى أوروبا بسبب اجتياح الجيش الروسى للحدود التركية، وتوقع اندلاع الحرب بين كل من إنجلترا وفرنسا وتركيا ضد روسيا – وهذا ما حدث بالفعل فيما عرف بحرب القرم – اضطر بوتشاتشين وأسطوله الروسى إلى مغادرة السواحل اليابانية. إلا أنه عاد مرة أخرى فى شهر ديسمبر إلى ميناء ناجاساكي وطالب بعقد المعاهدة مع اليابان، وأخيراً وبعد العديد من المحادثات تم التوقيع على المعاهدة بين البلدين فى ديسمبر من عام ١٨٥٤م.

ضمت معاهدة الصداقة اليابانية الروسية تسع مواد، ولكن كان أهمها ما يلى :-

- ١ - فتح ثلاثة موانئ أمام السفن الروسية وهى هاكوداتى ونجاساكي وشيمودا.
- ٢ - تكون جزر أتروفو هى آخر حدود اليابان وتصبح جزر كارافوتو (سخالين) جزيرة مشتركة بين البلدين يعيش بها مواطنو البلدين.

٣ - تعترف اليابان لروسيا بحق الدولة الأحق بالعاملة والرعاية، وكذلك بحق التقاضى للمواطنين الروس أمام محاكم بلدهم على الرغم من وجودهم باليابان.

بعد روسيا عقدت اليابان معاهدة أخرى مع فرنسا في أكتوبر من عام ١٨٥٥م ثم كانت هولندا آخر دولة تعقد معاهدة للصدقة مع اليابان، وهذا في الحقيقة كان عكس مجريات الأحداث، فقد كانت هولندا هي الدولة الأوروبية الوحيدة التي كانت تتعامل تجارياً مع اليابان، وذلك طوال ما يزيد على ثلاثة قرون، وهي أيضاً التي نصحت اليابان بأن تفتح أبوابها أمام المد الغربي حتى لا يحدث لها مثلما حدث للصين من هزيمة تلقتها على أيدي الدول الأوروبية المتحالفة ضدها.

على أية حال، تم أخيراً توقيع معاهدة الصداقة اليابانية - الهولندية في نهاية عام ١٨٥٥م. وطبقاً لهذه المعاهدة اعترفت اليابان بجميع الحقوق الهولندية فيما يتعلق بالسكن في جزيرة دشيماء Deshima والأراضي المستأجرة وكذلك في إنشاء المنازل الخاصة والمخازن، وإلى جانب ذلك تلغى جميع الإجراءات المتعسفة التي تُتخذ حيال دخول السفن الهولندية وخروجها وإزاء المواطنين الهولنديين كذلك. وقبل توقيع هذه المعاهدة كانت العلاقات اليابانية الهولندية تتوقف عند حد التجارة مع الهولنديين، ولكن بتوقيعها بدأت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين تتخذ مجراها الرسمي.

كانت عملية فتح أبواب اليابان أمام الدول الغربية وسفنها شيئاً بغياً على الكثير من رجال الباكفو وذلك لأن حكومة الباكفو ورجالها اعتبروا هذا تهديداً لوضع الباكفو وتحطيماً لسياسة العزلة الطويلة التي وجدوا فيها الأمان لليابان من وقوعها في براثن الاستعمار والتدخل الغربي كما حدث في بلدان أخرى عديدة مجاورة لليابان وغير مجاورة لها.

وسار على منوال الحكام في هذا القلق كل اليابانيين، فتراهم ينشدون بيتاً من الشعر عبّر عن هجوم الكوارث على اليابان متمثلاً ذلك في السفن السوداء التي جاء بها بيري في كاناجاوا، وفي شمال إقليم الكانتو حيث توجد مدينتا كاناجاوا وإيدو حدث زلزال مروع في نوفمبر من عام ١٨٥٤م، وهنا تغنى العامة ببيت شعر حزين يقول: عالنا الهادئ يتهاوى: فالشمال يهتز والجنوب أيضاً يهتز. وكان لسان حالهم يقول إن الكوارث لا تتأتى فرادى ولكن جماعات. والأدهى من ذلك: وفي خضم هذه الأحداث من تنازلات الساسة اليابانيين عن كثير من حقوق اليابان. يأتي زلزال آخر مروع بعد أقل من عام واحد ليهز أرجاء مركز الباكفو العاصمة إيدو. وهذا الزلزال يعرف في تاريخ اليابان بزلزال إيدو الرهيب. وقد راح ضحية هذا الزلزال المفكر الكونفوشي فوجيتا طوكو Fujita Toko (١٨٠٦م - ١٨٥٥م).

وتوفى هذا الرجل بعد أن أنقذ والدته من الموت المحقق. وهذا المفكر كان في الوقت نفسه المعلم الرئيسي لحاكم مقاطعة ميتو طوكوجاوا نارى آكى Tokugawa Nariaki (١٨٠٠م - ١٨٦٠م) كان مشهوراً بعدائه الشديد للأجانب ولفكرة التعامل معهم لدرجة أنه كان يفكر لو أن الأسلحة توافرت له لطردهم على التو من اليابان كلها. لكن ما حدث أن السماء جاءت بالأجانب وقضت على عدو الأجانب الأكبر نارى آكى فى عام ١٨٦٠م ليخلو الجو لأصحاب الفكر المعتدل من أمثال هوتا ماسايوشى Hotta Masayoshi (١٨١٠م - ١٨٦٤م) وحاكم هيكونى أى ناأوسيكى Ii Naosuke (١٨١٥م - ١٨٦٠م) وكلاهما سيوقع على معاهدات تجارية مع البلدان الأجنبية الخمسة التى سبق لليابان أن وقعت معهن معاهدات صداقة. أما الثانى فقد نال عقاباً شديداً من معارضى توقيع معاهدات مجحفة مع الأجانب فقاموا باغتياله فى عام ١٨٦٠م، فيما سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد.

٣- إصلاح آنسى (Ansei Nokaikaku) :

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذا الإصلاح نود فقط أن نعرف ببساطة أن إصلاح آنسى يعنى تلك الإصلاحات والإجراءات السياسية والمشاريع والمنشآت التى قامت بها حكومة الباكفو فى فترة آنسى Ansei أى ما بين ١٨٥٤م إلى ١٨٦٠م. فقد كان لابد لحكومة الباكفو وحكام المقاطعات أن يتخذوا عدة إجراءات إصلاحية تهدف إلى مواجهة الوضع الجديد الذى وضعت فيه اليابان بعد عقد معاهدات الصداقة الخمس التى تحدثنا عنها تواءً. فقد وجدت اليابان نفسها ولأول مرة فى تاريخها فى مواجهة صدمة أمام حضارة الغرب المتفوقة عليها فى مختلف المجالات، وعلى الأخص المجال العسكرى. فيها هو ذا يبرى يتقدم نحو السواحل اليابانية بمدافعه العملاقة وأسطوله الضخم فلم يكن أمام الباكفو من بد إلا إدخال هذه التقنية الحديثة. وتولدت عندها وعند حكام المقاطعات رغبة أكيدة فى إدخال مختلف النواحي المتقدمة لدى الغرب. ومن هنا نشأ إصلاح آنسى.

ومن أهم مظاهر إصلاح آنسى هو إنشاء الباكفو لطابية كبيرة فى منطقة شيناغاوا تحت إشراف الناشط والمصلح إجاوا هيدتاتسو Egawa Hidetatsu (١٨٠١م - ١٨٥٥م) وذلك من أجل إحكام الحماية على ساحل أيدو. وفى ناجاساكي تم إنشاء ما يمكن أن نعرفه بالأكاديمية البحرية فى عام ١٨٥٥م وذلك من أجل تدريب البحارة اليابانيين على قيادة السفن الحربية ذات الطراز الغربى، وقد تم تدريبهم على يد الهولنديين. إلا أن هذه

الأكاديمية سرعان ما أغلقت فى عام ١٨٥٩م. وفى عام ١٨٦٦م تم إعادة إنشائها فى مدينة يوكوهاما ولكن على أساس من النظم الفرنسية. وفى عام ١٨٥٦م (٣ من آنسى) تم إنشاء مؤسسة للترجمة والتعليم تهتم فى الأساس بالنواحى العسكرية الغربية وكان مقرها فى مدينة إيدو. وفى عام ١٨٥٤م تم إنشاء مدرسة حربية لتدريب محاربى الباكفو على استخدام المدافع وغيرها من الأسلحة. ومن أجل صنع المدافع تم إنشاء عدد من الأفران العاكسة لصهر الحديد فى العديد من المدن مثل ميتو وكاجوشيما وهاجى Hagi، وعلى الأخص بذلت مقاطعة ميتو (تمثل الآن وسط محافظة إيباركى) جهوداً بارزة من أجل إنشاء هذه الأفران وكذلك مصانع لإنتاج البارود، والطريف أنها كانت أكثر من أخذ بالنظم الغربية الحديثة على الرغم من أنها كانت تعتبر معقلاً لأعداء الأجانب وأكثر المطالبين بطردهم من اليابان. إلا أن مقاطعة ساتسوما القوية آلت على نفسها إلا أن تأخذ دور القيادة فى إدخال مظاهر الحضارة الغربية العسكرية وغير العسكرية فتوسعت فى إدخال النواحى العسكرية لدرجة أنها سوف تستطيع مواجهة إنجلترا فى معركة حامية الوطيس فيما بعد وذلك فى عام ١٨٦٣م وسوف تكون هذه الحرب (Satsuei Senso) السبب فى تقارب الطرفين - إنجلترا وساتسوما - فيما بعد.

وبلاشك فإن إصلاح آنسى لم يأت ولم يخرج إلى النور ما لم تكن هناك مواجهة مع الغرب أحدثها يسرى بمجيئه إلى أوراجا فى يوليو ١٨٥٣م. ولكن لم يكن إصلاح آنسى وتطوير الفكر اليابانى هو وحده نتيجة هذه المواجهة، بل كانت هناك عدة نتائج أخرى لا يمكن إغفالها. فحتى مجيء بيري كانت حكومة الباكفو تتصرف فى شئون البلاد كما يحلو لها وباستبداد واضح. ولكن يبدو أن العزلة الطويلة التى وضعت الباكفو فيها نفسها واليابان كلها قد أفقدتها الخبرة فى التعامل مع الأجانب، فما إن تلقت خطاب الرئيس الأمريكى الذى أتى به بيري حتى أسقط فى يديها وفشلت فى التفكير هذه المرة باستقلالية. ولذلك نجد مستشار الباكفو أبى ماساهيرو Abe Masahiro (١٨١٩م - ١٨٥٧م) يخرق كل تقاليد الباكفو السابقة ويبعث بتقرير إلى الإمبراطور حول رسالة الرئيس الأمريكى، بل يبعث إلى عدد من الدائموات يطلب منهم إبداء آرائهم حول الخطاب نفسه. وبذلك الإجراء غير المسبوق من ماساهيرو فقد عاد مرة أخرى بعد طول غياب البلاط الإمبراطورى إلى معترك السياسة، وزادت بالفعل صلاحياته وسلطاته. كذلك أعطى هذا الإجراء الفرصة لحكام الأقاليم أن يدلوا بدلوهم فى أمور سياسية لم يكن لهم فيما سبق أى دور.

وهكذا وجدنا تحولاً كبيراً في إدارة الباكفو الاستبدادية للأمر السياسية، ورويدا رويداً تصاعدت حدة المواجهة مع الغرب وتصاعدت معها وتيرة العداء له بسبب المطالبة الأمريكية بتطوير معاهدة الصداقة مع اليابان لتصبح معاهدة للتجارة أيضاً. ففي عام ١٨٥٦م عين الدبلوماسي هاريس (١٨٠٤م - ١٨٧٨م) كأول قنصل عام لأمريكا في شيمودا، وفي العام التالي حظى هذا القنصل بمقابلة الشوجون، ولكنه خلال هذه المقابلة طالب بشيء من الحدة بعقد معاهدة تجارية يابانية - أمريكية. ولكن المسئول الياباني الذي كان يقاوض هاريس، وهو هوتا ماساسا يوشى اشترط موافقة البلاط الإمبراطوري على هذه المعاهدة. ويبدو أن نجاح هاريس في عقد اتفاقية «شيمودا» هو الذي جعله يطمع في توقيع اتفاقية تجارية مع اليابان. وكانت اتفاقية شيمودا هي ثاني اتفاقية تعقدها الولايات المتحدة الأمريكية مع اليابان بعد اتفاقية كاناجاوا. ونجح هاريس من خلال اتفاقية شيمودا التي عقدت في مايو ١٨٥٧م - في أن ينتزع حق الإقامة للأمريكان في اليابان وكذلك حق عقد المحاكم القنصلية في اليابان، وهي تلك التي يكون فيها أحد أطراف القضية أمريكياً والطرف الآخر يابانياً ولكن تكون المحاكمة طبقاً للقانون الأمريكي وليس الياباني.

وفى لقائه مع مستشار الباكفو استعمل هاريس فصاحته مرة بالنصح ومرة أخرى بالتهديد. فهو يحاول إقناعه أنه عن طريق التجارة فقط يمكن بناء دولة غنية وجيش قوى. وهو أيضاً يحذرهم بل يهددهم بعواقب الأمور إذا ما التفتت كل من إنجلترا وفرنسا إلى اليابان بعد هزيمة الصين أمامهما في حرب السهم (١) (١٨٥٦م - ١٨٦٠م).

وهكذا ظل هاريس يخيف اليابان من نوايا إنجلترا الاستعمارية، ويحاول إقناع مسئولى الباكفو بأن عقد معاهدة للتجارة والصداقة مع أمريكا سوف يوفر الحماية لليابان حتى لا تقع في براثن الاحتلال على يد إنجلترا ذات النوايا السيئة، وهو في الوقت نفسه لا ينسى أن يشيد بدور أمريكا في حماية دول أخرى غير اليابان من مصير الغزو على يد الدول الاستعمارية.

ولكن وعلى عادة كل السياسيين في استخدام كل الطرق والوسائل المتاحة لهم من أجل الوصول إلى أهدافهم فإن هاريس لم يتردد في التلويح والتهديد باستخدام القوة المتمثلة في الأسطول الأمريكي ومدافعه التي لا تخطئ، وذلك عندما تأخر رد حكومة الباكفو شهراً واحداً عليه، وبالفعل ظهر تأثير هذا التهديد سريعاً. فسرعان ما اجتمع به المستشار هوتا

ماسايوشى ودخلا فى المفاوضات مرة أخرى. وكان واضحاً أن حكومة الباكفو حريصة على إنجاح المفاوضات وذلك عندما عينت اثنين من المفاوضات عرف عنهما أنهما من مؤيدى ومشجعى الانفتاح على الغرب، وهما إينو أوى كيونائو Inoue Kyonao (١٨٠٩م - ١٨٦٧م) وإيواسى تادانارى Iwase Tadanori وكلاهما عين فى منصب يوازى وزير خارجية اليابان فيما بعد. وبعد فترة من المفاوضات تم التوقيع بالفعل على معاهدة الصداقة والتجارة اليابانية الأمريكية فى يوليو ١٨٥٨م، ولكن من الجدير بالذكر هنا أنه على الرغم من الجهود التى بذلها هوتا ماسايوشى من أجل إنقاذ اليابان من مصير الصدام مع أمريكا، فإنه لم يستطع الحصول على موافقة البلاط الإمبراطورى على عقد المعاهدة، وكذلك انهزم فى عدة معارك سياسية أخرى. وفى النهاية أمر المستشار الأكبر إيينا أوسوكى Iinao Suke (١٨١٥م - ١٨٦٠م) بتحديد إقامة هوتا وإعفائه من كل مناصبه، وذلك بعد تعيينه مباشرة فى منصب المستشار الأكبر. ثم تولى الأخير مهمة إنقاذ المعاهدة مع الأمريكين، ولكن بدون الحصول على موافقة البلاط الإمبراطورى.

٤ - معاهدة الصداقة والتجارة اليابانية الأمريكية:

من الشخصيات التى أثرت تأثيراً عميقاً فى تاريخ اليابان الحديث يبرز لنا السياسى القوي والعنيد إيينا أوسوكى Iinao Suke، فبرغم حياته القصيرة التى لا تتعدى الخمسة والأربعين عاماً، فإن مواقفه السياسية الشهيرة تظهره وكأنه عاش حتى الثمانين. فهو فى الثلاثين من عمره يتولى منصب حاكم مقاطعة هيكونى Hikone فى محافظة شيجا ثم فى عام ١٨٥٨م يصبح المستشار الأكبر فى حكومة الباكفو وهو منصب يوازى منصب رئيس الوزراء فى الوقت الحاضر. وبمجرد وصوله إلى منصب «طايرو Tairo» أى المستشار الأكبر، يقوم بعزل المستشار المتردد هوتا ماسايوشى. ثم بعد شهرين فقط من تنصيبه وفى يونيو ١٨٥٨م يقوم بعقد معاهدة الصداقة والتجارة اليابانية - الأمريكية وذلك دون الحصول على موافقة البلاط الإمبراطورى. ثم بعد أشهر قليلة ينتصر فى نزاعه ضد حزب هيتوتسوباشى Hitotsubashi، ونجح فى تنصيب يوشيتومى (إييتى موتشى) فى منصب الشوجون الرابع عشر وليس يوشى نوبو الذى سيصبح الشوجون الخامس عشر والأخير، ولكن بعد وفاة أيبى موتشى فى عام ١٨٦٦م فى أثناء حرب الباكفو ضد مقاطعة تشوشو Choshū.

هيأت تلك الظروف السابق ذكرها إلى جانب إلحاح القنصل الأمريكي هاريس في الإسراع في عقد المعاهدة مع أمريكا. وقد استغل هاريس الظروف الدولية وخضوع الصين لكل من إنجلترا وفرنسا في حث، بل وتخويف رجالات الباكفو على المضي قدماً من أجل إنفاذ المعاهدة. واستطاع هاريس أن يقنع الباكفو بدور أمريكا في إصلاح ذات البين بين كل من اليابان من جهة وفرنسا وإنجلترا من جهة أخرى إذا ما دب الخلاف بينهما.

وعليه كان من رأى هاريس أنه ليس هناك ضرورة للانتظار حتى يوم ٢٧ يوليو، وهو اليوم الذى تحدد بين كلا الطرفين - اليابانى والأمريكى - من أجل التوقيع على المعاهدة. وبالفعل تم الانصياع لطلب هاريس هذا، وجرى التوقيع على معاهدة الصداقة والتجارة اليابانية - الأمريكية فى يوم ١٩ يونيو ١٨٥٨م على متن البارجة الأمريكية بوهاتان، وفى هذا بالطبع مغزى كبير فى طبيعة استخدام القوة العسكرية الأمريكية فى إجبار حكومة الباكفو على فتح أبواب اليابان لإقامة علاقات دبلوماسية وتجارية فيها كثير من الإجحاف بمصالح اليابان الاقتصادية والسياسية كما سترى من تناولنا لمحتويات المعاهدة. وفى الحقيقة فقد استوعب إيينا أو سيكى هو ومساعدوه من المفاوضين اليابانيين هذه الحقيقة المرة، ورضوا بأن تخسر اليابان اقتصادياً وسياسياً على أن تفقد استقلالها وأمنها الداخلى كما حدث للصين. ويرى الكثير من الباحثين أن رجالات الباكفو وفقوا إلى حد بعيد فى هذا القرار. ولكن كان على إيينا أوسيكى أن يتخذ عدة قرارات حتى يقمع المعارضين وذلك فيما عرف بمحاكمة آنسى الكبرى وما كان من رد فعل عنيف من الغاضبين من هذه المحاكمة والذى سوف ينتج عنه اغتيال المستشار الأكبر إيينا أو سيكى فى مارس ١٨٦٠م فيما سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد.

محتويات المعاهدة:

تكونت معاهدة الصداقة والتجارة اليابانية - الأمريكية من أربع عشرة مادة. ومن أهم

هذه المواد:-

١ - فتح المدن والموانئ التالية: كاناجاوا وناجاساكي ونييجاتا وهيوجو وإيدو وأوساكا أمام المواطنين والسفن الأمريكية.

٢ - جعل التجارة حرة أمام البضائع الأمريكية.

٣ - إقامة مناطق لسكن الأجانب فى اليابان، على أن يُحظر التجوال والرحلات على

هؤلاء الأجانب إلا فى حيز ٤٠ كيلو متراً من مناطق وجودهم.

٤ - فى حالة ارتكاب أى أجنبى لجريمة فى محيط وجوده فإنه لا يخضع للقوانين اليابانية ولكن يخضع لقانون بلده الأسمى ، وتتم محاكمته أمام قنصلية بلده وليس فى المحاكم اليابانية - أى ببساطة خلق بلد أجنبى داخل اليابان نفسه .

٥ - فيما يتعلق بفرض الجمارك لا تستطيع اليابان فرض الجمارك على السلع باستقلالية بل لابد لها من أن تتفاوض أولاً مع الدولة الأجنبية التى تصدر أو تستورد السلعة قبل فرضها الضرائب والجمارك ، وفقدت بذلك مبدأ مهم فى المعاملات والقوانين الدولية وهو مبدأ حق فرض الجمارك بحرية . وبذلك أصبح من حق الدول الأجنبية التى وقعت معاهدات تجارية مع اليابان أن تقرر جمارك منخفضة على بضائعها عند دخولها اليابان حتى تباع هذه البضائع بسهولة فى اليابان .

وهذه النقاط السيئة بالنسبة لليابان سواء فيما يتعلق بالمحاكم القنصلية أو بعدم حرية اليابان فى فرض الجمارك باستقلالية ، إذا كانت قد اقتصرت على أمريكا فقط فربما هان أمرها ، إلا أن المعاهدة التى أبرمت مع أمريكا قد تم إبرام غيرها مع كل من هولندا وروسيا وإنجلترا وفرنسا ، وبموجب شروط معاهدة الصداقة والتجارة اليابانية الأمريكية نفسها ، فيما عرف «بمعاهدات آتسى الخمس» .

وعلى أية حال ، لم يكن أمام حكومة الباكفو إلا أن تُقدم على إبرام هذه المعاهدات الخمس . وإلا كان عليها أن تقبل المواجهة العسكرية ضد الدول الأوروبية وأمريكا . وكانت فى الغالب سوف يكون مصيرها هو مصير الصين نفسه ، فقد وافقت الأخيرة على إبرام المعاهدات مع الدول الأجنبية ولكن بعد فقدتها استقلالها وخسارتها للحرب . ولذلك جاءت بنود معاهدة "تنشين" الموقعة بين الصين والدول الغربية مجحفة إلى حد كبير إذا ما قارناها بمعاهدات اليابان مع الغرب . فمثلاً تم تقييد حرية الأجانب فى الانتقال داخل اليابان إلا أن هذا القيد لم يكن موجوداً فى الصين وتمكن الأجانب فى الانتقال بكل الحرية عبر أراضي الصين كلها . وفيما يتعلق بفرض الضرائب والجمارك كانت النسب المفروضة فى حالة الصين ظالمة ومجحفة إلى حد بعيد وذلك بالمقارنة مع تلك التى فرضها الغرب على اليابان . ولكن الأهم من ذلك أن اليابان احتفظت باستقلالها ولم تقم قوات أجنبية بغزوها . وهذه النقطة بالذات تحسب للمستشار إيينا أويسكى ، فربما لو احتلت اليابان لما استطاعت القيام بنهضتها الكبرى فى عصر مييجى . أما فيما يتعلق بالبنود الظالمة والمجحفة بالنسبة

لليابان فقد أصبحت مشكلة سياسية كبرى واجهتها اليابان مع الدول الغربية فيما عُرف «بإصلاح المعاهدات» وقد تم بالفعل تحسين معظم البنود لصالح اليابان، وهذا ما سوف نتحدث عنه في حينه.

٥ - محاكمة آنسى الكبرى:

مهما قلنا ومهما التمسنا العذر لرجل الباكفو القوى إيبينا أوسيكى فى اضطراره التوقيع على معاهدات آنسى الخمس، وحمايته بذلك اليابان من الاحتلال كما حدث للصين، فإن هذا لم يمنع من وجود معارضة قوية وعنيفة، وعلى الأخص من الإمبراطور Kōmei الذى كان لا يوافق على فتح الموانئ والمدن أمام الأجانب، وكذلك لم تعجب هذه المعاهدات الظالمة لليابان جناح هيتوتسوباشى المناوئ فى الأصل لإيبينا أوسيكى إلى جانب كراهيته للأجانب. ونستطيع القول إن الجناح المناوئ لإيبينا أوسيكى وحزب المطالبين بالإصلاح والانفتاح على الغرب قد اتخذ هذه المعاهدات غير المتكافئة فرصة للهجوم عليهما. وبالفعل قام زعيم جناح الصقور المعروف بكراهيته للغرب طوكوجاوا نارى آكى بهجوم عنيف على إيبينا أوسيكى، بل حاول انتزاع منصب المستشار الأكبر من إيبينا أوسيكى.

ولكن وكما ذكرنا باختصار من قبل. فقد اقتصر إيبينا أوسيكى على الجناح المعارض له، واستطاع إقصاء المستشار هوتا ماسايوشى وبذلك ضرب عصفورين بحجر واحد. فهو من ناحية استطاع التخلص من أخلص معاونى حزب هيتوتسوباشى المعارض له، وكذلك جعل من هوتا كبشاً للفداء، وأظهره كما لو كان هو المسئول عن توقيع تلك المعاهدات المجحفة باليابان. ومن ناحية أخرى استطاع إيبينا أوسيكى أن ينتصر فى معركة تنصيب الشوجون الرابع عشر. فقد كان الشوجون الثالث عشر وهو طوكوجاوا إيبي سادا Tokugawa Iesada علياً منذ ولادته. وكان واضحاً للعيان أنه لن يعيش طويلاً، وبالفعل توفى وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره (١٨٢٤م - ١٨٥٨م) دون أن ينجب. وهنا ظهرت مشكلة خلافته؛ ففي حين تبنى كل من شيمازو نارى أكيرا حاكم مقاطعة ساتسوما وياما أوتشى (١٨٢٧م - ١٨٧٢م)، وتوشى شيجى حاكم توكوجاوا دايرا يوشى ناجا حاكم مقاطعة إتشى زن تبنوا هؤلاء جميعاً محاولة تنصيب أحد أبناء عائلة هيتوتسوباشى وهو يوشى نوبو، على أساس أنه الأكبر سناً والأقدر على تولى مهام الشوجون الجسام. ولكن على الجانب الآخر تولى إيبينا أوسيكى مهمة تنصيب توكوجاوا يوشى تومو على الرغم من صغر سنه (١٢ عاماً)

وعدم درايته بأمور الحكم، وذلك على أساس أنه الأقرب في النسب من الشوجون الثالث عشر. وبالفعل انتصر إيينا أوسيكى فى معركة توليه الشوجون الرابع عشر. وفى حين أن الكثيرين من الباحثين يرون أن إيينا أوسيكى كان مضطراً لتوقيع المعاهدات المجحفة لليابان المعروفة بمعاهدات آنسى الخمس. فإنه لم يكن مضطراً لتعيين شخص مثل يوشى تومو الذى أصبح الشوجون الرابع عشر، وهو مازال فى الثانية عشرة من عمره إلا لأسباب شخصية تتبلور فى رغبة إيينا أوسيكى فى تعيين خيال للمائة وليس شوجون قوياً يحد من سلطاته وبالتالى يستطيع إيينا أوسيكى فرض كل إرادته، وإدارة دفة البلاد كما يحلو له.

وهكذا وعبر خطوتين مهمتين فى تاريخ اليابان، وهما توقيع معاهدات آنسى وتنصيب الشوجون إييموتشى أوجد إيينا أوسيكى معارضة شديدة له، وركزت هذه المعارضة فى الإمبراطور كومى الذى غضب غضباً شديداً لتوقيع إيينا أوسيكى للمعاهدات بدون الحصول على إذنه، وكذلك غضبت مقاطعة ميتو (جزء من محافظة إيباراكي حالياً) التى كانت ترغب فى تنصيب ابنها يوشى نوبو فى منصب الشوجونيه، إلا أن إيينا أوسكى خذلها. وكان أن تعاون كل من البلاط الإمبراطورى ومقاطعة ميتو لإسقاط إيينا أوسيكى على الرغم من أن مقاطعة ميتو هى فى الأصل تابعة لحكومة البكفو وليس للإمبراطور، ولكن تطور الأحداث وعناد إيينا أوسيكى قريبا بين الفريقين. ومما زاد المعارضة ضده هو ممارسته للضغوط الشديدة على المعارضين وشنق بعضهم وسجن وتحديد إقامة البعض الآخر، وكذلك نفى عدد آخر إلى الجزر النائية فيما عرف بمحاكمة آنسى الكبرى.

فى بداية الأمر تم تقديم المقبوض عليهم إلى الاستجواب والمساءلة فى فبراير ١٨٥٩م. وحتى تسير المحاكمة سيراً عنيفاً كما أراد لها إيينا أوسيكى فقد تم استبعاد المعسكر الذى يدعو إلى التانى فى إصدار الحكم وكذلك تم إبعاد هؤلاء الذين كانوا ينادون باستعمال الرأفة مع المتهمين، وبالطبع استبقى إيينا أوسيكى الجناح المتشدد الذى يطالب بإيقاع أقصى عقوبة على المتهمين.

فى البداية وجه الاتهام لعدد من معارضى الباكفو من حزب هيتوتسوباشى - مثل طوكوجاوا أكينارى وماتسودايرا يوشيناغا وغيرهما بأنهم اجتاحتوا قلعة إيدو بدون إذن فى الوقت غير المعتاد للتواجد فى إيدو، وتم عقابهم بتحديد إقامتهم. ولكن البسطاء من المحاربين والعلماء تلقوا أعنف العقوبات وذلك بإعدامهم أو موتهم فى السجن. ومن هؤلاء

العالم والمحارب يوشيدا شووين (١٨٣٠م - ١٨٥٩م) ومثيله أوميدا أونبين (١٨١٥م - ١٨٥٩م) وغيرهما وعددهم ثمانية. وكانت هناك عقوبات خفيفة إلى حد ما مثل النفي إلى جزر بعيدة وحلق الشعر، وكان ذلك آنذاك شيئاً لا يستهان به. ووصل عدد من تلقوا مختلف العقوبات إلى مائة شخص.

ولكن الملاحظ في هذه المحاكمة أن كثيراً من الذين تلقوا العقاب كانوا من العلماء والكتاب والمستنيرين، وهذا ما أفقد حكومة الباكفو عناصر مثقفة ومستنيرة، مما أدى بالتالي إلى إضعافها.

وبالطبع لم تكن هذه المحاكمة الظالمة لتذهب دون ظهور صدى وتأثير عميقين لها. وهذا بالفعل ما حدث في يوم ٣ مارس ١٨٦٠م حينما توجه ثمانية عشر محارباً - كلهم من مقاطعة ميتو عدا محارباً واحداً من مقاطعة ساتسوما (كاجوشيما الحالية). توجهوا جميعاً إلى بوابة ساكورادا مون Sakurada mongai حيث توقعوا مجيء القائد إيينا أوسيكى وموكبه يبغون اغتياله. وهذا بالفعل ما نجحوا فيه وكان عمر إيينا أوسيكى آنذاك ٤٦ عاماً. وهذه الحادثة أحدثت صدمة كبيرة لسكان عاصمة الباكفو إيدو. وعرفت هذه الحادثة باسم البوابة التي حدثت عندها وهي إحدى بوابات قلعة إيدو. وكان لاغتيال إيينا أوسيكى أعمق الأثر في مصير حكومة الباكفو، حيث إنها اعتبرت نهاية لاستبداد الباكفو والبداية الحقيقية لانهيائها.

بعد اغتيال إيينا أوسيكى لم يكن أمام قواد الباكفو، وفي طليعتهم مستشار الشوجون أندو نوبو ماسا (١٨٢٠م - ١٨٧١م) إلا القيام بعدة إجراءات لإصلاح ما أفسدته سياسة إيينا أوسيكى المتعنتة سواء فيما يتعلق بالعلاقة مع البلاط الإمبراطورى التى ساءت بسبب توقيع المعاهدات مع الغرب دون الحصول على إذن البلاط، وكذلك العلاقة مع المقاطعات التى تنادى بالإصلاح والتى كذلك رشحت لمنصب الشوجون الرابع عشر طوكوجاوا يوشينوبو، ولكنها فشلت أيضاً بسبب تعنت إيينا أوسيكى وكانت أول خطوة قام بها نوبوماسا هى إعادة المستشار كوزى هيروتشيكا Kuze Hirochika (١٨١٩م - ١٨٦٤م). والذى كان يتولى منصب المستشارية لحكومة الباكفو لمدة ٧ سنوات قبل أن يطرده إيينا أوسيكى منها بسبب مشكلة خلافة الشوجون، حيث كان كوزى يؤيد جناح هيتوتسوباشى فى موقفه من تنصيب يوشينوبو. وعندما عاد كوزى إلى ملعب الشوجونيه أمر على التو بوقف قرار إيينا

أوسيكى الذى يقضى بتحديد إقامة كل من طوكوجاوا يوشى كاتسو وطوكوجاوا يوشينوبو وغيرهما ممن حُددت إقامتهم.

وفى هذه الأثناء كانت النتائج السيئة للانفتاح التجارى قد بدأت فى الظهور وارتفعت الأسعار بطريقة فجائية مما زاد من نفوذ الجناح المناوئ للأجانب والذين كانت حاجتهم قوية فى أن التجارة هى عصب الاقتصاد فى اليابان فإذا ساءت أحوالها فليس هناك بعد ذلك ما يصلح لليابان. وقد ارتبطت فكرة كراهية الأجانب وطردهم من اليابان مع الاحترام والتبجيل للإمبراطور فيما عرف بفكرة الـ Sonnōjoi، وهنا فكر قادة الباكفو فى عمل شىء ما يوحد الأمة التى اختلفت بسبب معاهدات آنسى الخمس. وكذلك من أجل استرجاع هيبة الباكفو وسلطاته. فخرجت إلى النور فكرة الزواج ما بين البلاط الإمبراطورى (Kō) والحكومة العسكرية (Bu) فيما عرف بسياسة دمج البلاط الإمبراطورى مع الباكفو (Kōbu Gattai). وتتلخص هذه للسياسة فى تزويج أخت الإمبراطور كومي - والد الإمبراطور مييجى - وهى الأميرة كازونوميا (١٨٤٦م - ١٨٧٧م) بالشوجون طوكوجاوا أيى موتشى. ولكن كانت هناك مشكلة، فقد كانت الأميرة كازونوميا مخطوبة، أو بمعنى أدق «مقروء فاتحتها» بالمعنى العربى منذ أن كانت فى السادسة من عمرها للأمير طاروهيتو (١٨٣٥م - ١٨٩٥م)، بل كان موعد الزواج قد تحدد بالفعل. وكان يبدو وللجميع آنذاك أن حبا وإعجاباً واضحين سكنا فى قلبى الأميرين. وعلى الرغم من ذلك مضت الباكفو فى سعيها لإتمام زواج الأميرة بالشوجون. واستخدمت كل الوسائل من أجل إبعاد الأمير طاروهيتو عن محبوبته كازونوميا. فأبعدت كل المعارضين من رجال البلاط عن مناصبهم. وكما استخدمت العصا مع المعارضين استخدمت أيضاً الجزرة مع الراغبين فى عودها. فهى مثلاً تعد السياسى ورجل البلاط الشهير إيواكورا طومومى (١٨٢٥م - ١٨٨٣م) بأنها سوف تحدد أجلاً لطرد الأجانب، وعلاوة على ذلك فقد عينت أختى إيواكورا الصغيرتين فى وظيفة وصيفات بالبلاط الإمبراطورى.

وهكذا استطاعت الباكفو عبر كل الوسائل أن تتم زواج البلاط الإمبراطورى بالحكومة العسكرية (الباكفو). ولذلك انتقد هؤلاء الذين يعتقدون فى مبدأ طرد الأجانب وتبجيل الإمبراطور انتقدوا بشدة موقف الباكفو وعلى الأخص المستشار إندو نوبوماسا Ando Nobumasa (١٨١٩م - ١٨٧١م) الذى كان يعتبر مهندس سياسة دمج البلاط بالباكفو.

وكان لغضبهم نتيجة سيئة إلى حد كبير حيث قام ٧ من المحاربين ، معظمهم من مقاطعة ميتو فى ١٥ يناير ١٨٦٢م بمهاجمة أندو وجرحه ، ولكنهم لم يستطيعوا اغتياله ، كما كانوا يخططون. وقد حدثت هذه الواقعة عند بوابة ساكشيتامون Sakashitamون بقلعة أيدو. وبسبب هذه الحادثة - التى عرفت باسم البوابة التى وقفت عندها - ابتعد أندو عن حلبة الباكفو بعد ثلاثة أشهر فقط من إصابته.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الأميرة كازونوميا كانت ذات طبع هادئ وخلق ، محبوبة من الجميع ، وكانت تجنح للسلام فبعد موت زوجها الشوجون إييموتشى فى عام ١٨٦٦م - أى بعد زواجهما بأربع سنوات فقط - اعتزلت الحياة العامة وحلقت شعرها. ولكنها قامت بدور مهم فى عام ١٨٦٨م من أجل تسليم قلعة إيدو لجيش الحكومة الجديدة دون إراقة دماء. وبذلك انتهى تماماً عصر طوكوجاوا باكفو وبدأ عصر مييجى. ولذلك يحتفظ لها التاريخ اليابانى بذكرى عطرة.

٦ - إصلاح بونكيو Bunkyu no Kaikaku :

عندما فشلت محاولة الباكفو فى تحقيق سياسة الدمج بينها وبين البلاط الإمبراطورى ، كان لا بد أن تقوم بهذه المحاولة جهة أخرى حتى لا تسوء أحوال البلاد وتنتشر الفوضى. وتصدى لهذه المهمة والد حاكم مقاطعة ساتسوما شيمازو هيساميتسو. إلا أن المشكلة أن شيمازو نفسه كان قد حضر على رأس قوة من مقاطعته ساتسوما رافعاً شعار مناصرة الإمبراطور وطرده الأجنبي. ولكن حدث ما لا يحمد عقباه ، فقد ثارت جمعية المحاربين المؤمنين والنادين بهذا المبدأ وتمادوا فى طلبهم لكى يصل إلى إسقاط حكومة الباكفو ذاتها فى إيدو ، وهذا ما لم يكن هيساميتسو يريده ، فقد كان ينشد اتحاد واندماج البلاط الإمبراطورى مع الباكفو فى سياسة توحيد البلاد (Kōbu Gattai). وحتى يخدم هيسا ميتسو هذه الفتنة هاجم هؤلاء المطالبين بإسقاط الباكفو حيث كانوا مجتمعين فى ملهى يدعى «ترادايا Yeradaya» بكيوطو فقتل ثمانية محاربين من ساتسوما وذلك فى مساء ٢٣ إبريل ١٨٦٢م ، ولكن على أيدى محاربين من المقاطعة نفسها ، ولذلك عرف هذا الحادث باسم المكان الذى كان يجتمع فيه المتآمرون. أما الباقون من الذين بقوا على قيد الحياة وعددهم ٢٢ محارباً فقد عادوا إلى ساتسوما وحُددت إقامتهم. وكانت نتيجة هذا الحادث أن تلاشت الدعوة إلى تبجيل الإمبراطور وطرده الأجنبي من مقاطعة ساتسوما تماماً.

وتبعاً لذلك نال شيمازو هيساماتسو ثقة الإمبراطور لما أظهره من قدرة على قمع المطالبين بإسقاط الباكفو، فأمره بالذهاب إلى أيدو حيث مركز الباكفو لإقناع قادتها بتنفيذ الوعد بإعلاء كلمة الإمبراطور (Sonnō) وطرد الأجانب (Jōi)، وكذلك إجراء الإصلاح فيما يتعلق بسياسة دمج البلاط الإمبراطوري بالحكومة العسكرية. وكانت نتيجة هذه المهمة باهرة بحق. فقد تمت عدة إجراءات إصلاحية عديدة كان معظمها في صالح الإمبراطور ومنها تعيين يوشينوبو الذى كان مرشحاً لمنصب الشوجون الرابع عشر فى منصب خليفة الشوجون أو بالأحرى تعيينه نائباً له. وتعيين ماتسودايرا يوشيناغا Matsudaira Yoshinaga (١٨٢٨م - ١٨٩٠م) حاكم مقاطعة إيتشى زن السابق فى منصب المنسق العام لسياسة الباكفو، وبذلك تم تعيين اثنين من كبار المؤيدين لسياسة تبجيل الإمبراطور فى مناصب مؤثرة وخطيرة فى قلب الباكفو، مما سوف يكون له أكبر الأثر فى استعادة سلطات الإمبراطور بعد إسقاط الباكفو مباشرة فى عام ١٨٦٨م.

ولم يأل ماتسودايرا يوشيناغا جهداً من أجل إصلاح أمور الباكفو فقام بعدة إجراءات إصلاحية وأهمها ما يلى :-

١ - عمل تصفية لموظفى الباكفو والاستغناء عن هؤلاء الزائدين عن الحاجة ولا يأتى منهم فائدة تذكر. وإنشاء وظيفة خاصة من أجل حماية كيوطو.

٢ - القيام بإصلاحات جوهرية من أجل إصلاح نظام تناوب الدائموات المعروف بـ (SankinKotai) وهو نظام عتيق وبيروقراطى كان هدفه إرهاب الدائموات ووضعهم تحت ملاحظة حكومة إيدو حتى لا ينقلبوا عليها. وكان يتم كل عام، وبمقتضاه كان لابد لحكام الأقاليم أن يذهبوا على رأس حاشية كبيرة مرة كل عام إلى إيدو ليمثلوا أمام الشوجون ويقدموا له التقارير. وحسب هذا النظام كان على الداييميو أن يضع أسرته رهينة فى يد الباكفو حتى تضمن ولاءه لها. وطبقاً للإصلاح الجديد فإن هذا التناوب أصبح يتم كل ثلاث سنوات وليس كل عام، كذلك سمح النظام الجديد بعودة زوجة الداييميو وأولاده إلى مقاطعته.

٣ - أما الخطوة الثالثة وهى الأهم والأخطر فكانت تتعلق بإصلاح النظام العسكرى اليابانى، فوفق هذه الخطوة يتم تقسيم الجيش اليابانى إلى جيش برى وجيش بحرى. ويتم وضع لكل من الجيشين قيادة ووزارة خاصة بهما. ثم تم تشكيل الجيش العامل

من أجل خدمة الجيشين. كذلك قامت الباكفو بطلب إحضار بوارج حربية من كل من الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا وكذلك تم إرسال طلبة مبعوثين إلى هولندا لدراسة النظم العسكرية.

٤ - أما فيما يتعلق بإصلاح النظام التعليمي، فقد تم إدخال النظم التعليمية والتربوية الغربية الحديثة.

ولأن هذه الإصلاحات تمت في فترة بونكيو طبقاً للتقويم الياباني القديم فقد تم تسمية الإصلاح الذي حدث بها على اسمها، فأطلق عليها إصلاح بونكيو. وهذه الفترة تقع ما بين أعوام ١٨٦١م و١٨٦٤م.

وبعد أن أنهى هيساميتسو مهمته بنجاح في أيدو، تركها متجهاً نحو الغرب، وفي طريقه إلى كاناجاوا، وبالقرب من مدينة يوكوهاما مر على قرية صغيرة تسمى ناماموجي Namamugi وعندها وقع حادث لم يكن في الحسبان، وكان ذلك في يوم ٢١ أغسطس ١٨٦٢م. فجأة قطع موكب هيساميتسو أربعة من الإنجليز وهم يمتطون سهوة جيادهم. فاعتُبر ذلك من جهة حاشية هيساميتسو وصحبه نوعاً من الاستهانة وقلة الذوق، فما كان من جنود هيساميتسو إلا أن قاموا بقتل أحدهم وجرح ثلاثة من بين الأربعة.

وبالطبع لم يكن هذا الحادث ليسعد هيساميتسو، فهو يقدر سطوة الإنجليز وقوتهم، وهو أيضاً توقع ألا تسكت إنجلترا على هذا الحادث، خاصة أن هناك عدة حوادث لقتل عدد من الأجانب وجرحهم حدثت خلال العاميين الفاتئين كانت قد جلبت على اليابان مشاكل دبلوماسية مع الدول الأجنبية. فبعد افتتاح ميناء يوكوهاما كانت تصرفات الأجانب تتسم بالتعالي والعنف في الوقت ذاته وقد غضب اليابانيون بسبب هذه التصرفات أيما غضب، وقاموا من خلال أربع حوادث حدثت في خلال ستة أشهر فقط بقتل ستة من الأجانب. وفي ديسمبر من عام ١٨٦٠م قام عدد من محاربي ساتسوما بقتل مترجم القنصل الأمريكي، ولم يمر أكثر من ٦ أشهر حتى استهدف عدد من محاربي مقاطعة ميتو القنصلية الإنجليزية وجُرح اثنان من موظفي القنصلية. وفي مايو ١٨٦٢م وقبل حادث ناماموجي بثلاثة أشهر فقط، استهدف الحارس الياباني الذي جاء خصيصاً من مقاطعة ماتسوموطو لحراسة معبد طوزنجي (Tōzenji) حيث كان مقراً للقنصلية الإنجليزية استهدف القنصل الإنجليزي محاولاً قتله ولكنه فشل في ذلك فأقدم على الانتحار.

وهكذا وتكرار حوادث قتل الأجانب وجرحهم أصبح من المتوقع أن تتخذ إنجلترا والدول الأخرى موقفاً متشدداً رداً على هذه الحادثة. ولكن الرد جاء في البداية عفويًا من قبل الأجانب بمدينة يوكوهاما الذين انتابتهم غضبة شديدة جداً وطالبوا الدبلوماسيين الأجانب جميعاً باتخاذ إجراء شديد رداً على ذلك. وبالفعل تجمع عدد كبير من جنود البحرية الإنجليز والفرنسيين والهولنديين يتقدمهم القنصل الإنجليزي وطالبوا بالقبض على هيساميتسو، ولكن الوزير المفوض الإنجليزي هدأ من روعهم ورفض استخدام القوة على أساس أن ذلك ليس وقته وأن استخدام القوة سوف يُعقد الأمور، وبالطبع كان هذا الوزير المفوض لا يريد اتخاذ قرار أو إجراء دون الرجوع للمسئولين في إنجلترا نفسها. وبالفعل جاءه الأمر من حكومته في فبراير من عام ١٨٦٣م (٣ من يونيو) شاملاً المطالب الإنجليزية لحكومة الباكفو وهي:-

١ - تقديم الاعتذار مع دفع تعويض قيمته مائة ألف جنيه.

٢ - عقاب الجاني في مقاطعة ساتسوما أمام الضباط الإنجليز.

٣ - دفع ٢٥ ألف جنيه تعويضات لأسرة القتلى والجرحى.

وقد أوضحت الحكومة الإنجليزية من خلال وزيرها المفوض أنها سوف تلجأ لاستعمال القوة إذا لم توافق حكومة الباكفو على هذه المطالب. وبالفعل تدفقت عشر بوارح حربية ضخمة إلى ميناء يوكوها واستعدت لاستخدام القوة إلا أن مسئول مقاطعة ساتسوما ردوا بعنجهية ونفوا المسؤولية عنهم مما سوف يترتب عليه وقوع الحرب بين ساتسوما وإنجلترا (Satsuei Sensō) في شهر يوليو ١٨٦٣م فيما سوف نتحدث عنه في حينه بعد قليل.

٧- أول مواجهة عسكرية بين اليابان والغرب:

في هذه الأثناء انتقلت بؤرة الأحداث الملتهبة من ساتسوما إلى مقاطعة تشوشو chōshu (محافظة كاجوشيما). فقد ألهمت حادثة ناما موجى مشاعر الحزب الثائر على الأجانب في تشوشو. ثم اتحدت مشاعر هذا الحزب ومطالبه مع النبلاء في البلاط الإمبراطورى الذين يدعون للمطالب نفسها، ويجد البلاط الإمبراطورى نفسه في موقف قوى بسبب هذه المناصرة. وعليه فهو ينتفض ويطالب بقوة حكومة الباكفو لكي تطرد الأجانب وتعود لتطبيق سياسة العزلة. وعلى الرغم من عدم وجود النية لدى الباكفو لطرد الأجانب فإنها تحت ضغط البلاط الإمبراطورى والمتحمسين في مقاطعة تشوشو، لم تجد مفرًا من إصدار

أمر في ٢١ إبريل ١٨٦٣م جعلت فيه يوم ١٠ مايو، أى فى خلال أقل من شهر واحد هو آخر موعد لطرد الأجانب من اليابان، بل أرسلت خطاباً بهذا الأمر إلى مختلف المقاطعات حتى تقوم بتنفيذه.

وكان مقاطعة تشوشو كانت تنتظر يوم ١٠ مايو على أحر من الجمر، فما إن جاء هذا اليوم حتى كانت تشوشو تبدأ هجومها على السفن الأجنبية الموجودة فى سواحلها. فقد اتفق أن سفينة تجارية أمريكية كانت ترسو فى خليج شيمونوسيكي دون أن تعلم شيئاً عن الميعاد المحدد لعدم وجود الأجانب باليابان أو سواحلها. وعلى الفور قامت المدفعية الخاصة بتشوشو فى ضرب هذه السفينة بالقنابل. وبرغم دهشة السفينة وانزعاجها الشديد لهذا الضرب المفاجئ فإنها استطاعت أن تهرب بعيداً. وفى يوم ٢٣ من الشهر نفسه هوجمت سفينة فرنسية وبعد ذلك بثلاثة أيام فقط تم ضرب سفينة هولندية بمدافع تشوشو.

فرحت تشوشو بهذا الانتصار الخافت، ولكن سرعان ما جاءت البوارج الحربية القريبة للانتقام مما فعلته تشوشو. فى البداية جاءت بارجة حربية أمريكية فى اليوم الأول من شهر يونيو، وبعد ذلك جاءت بارجتان فرنسيتان فى يوم ٥ يونيو إلى شيمونوسيكي وقامت البوارج مجتمعة بضرب طوابى تشوشو. وتم إغراق سفينتين حربييتين لتشوشو، ثم نزل نحو مائتين وخمسين جندياً فرنسياً إلى الشاطئ وحطموا الطوابى، ثم قاموا بإحراق ما يزيد على عشرين بيتاً من بيوت الأهالى.

والغريب هنا أن مقاطعة تشوشو فقط هى التى أقدمت على طرد الأجانب وكانما معركة طرد الأجانب معركةها هى فقط، فلم تقدم الباكفو أو أية مقاطعة أخرى على خطوة طرد الأجانب، ربما لعلمهم أن ذلك من قبيل المستحيل نظراً لتفاوت مستوى القوة بينهم وبين البلاد الغربية.

ومن ناحية أخرى، وعلى الرغم من أن حكومة الباكفو قامت بدفع التعويضات التى طلبتها إنجلترا بسبب حادثة ناماموجى التى وقعت قبل عام من هذه الأحداث فإن إنجلترا أبت إلا أن تنتقم من مقاطعة ساتسوما، فلم يمر سوى شهر واحد حتى جاءت إنجلترا بأسطول مكون من سبع قطع بحرية إلى خليج كاجوشيما، وبدأت الحرب بين إنجلترا وساتسوما ولم يكن قد مر شهر على هجوم السفن الغربية على زميلتها فى الهدف نفسه

وهي بالطبع مقاطعة تشوشو، وكان الدول الغربية أبت إلا أن تلقن هاتين المقاطعتين درساً قاسياً حتى لا تطالبا مرة أخرى بطرد الأجانب.

على أية حال، لم تصمد مدافع ساتسوما أمام مدافع البوراج الإنجليزية، وأحرقت معظم قلاع المدينة وتلقت مدينة كاجوشيما خسائر رهيبية. وهكذا وفي فترة زمنية وجيزة من عام ١٨٦٣م أدركت كل من ساتسوما وتشوشو مدى قوة الغرب العسكرية، وكان من الطبيعي أن تخفت نيرة المعادة للأجانب وطردهم في هاتين المقاطعتين اللتين رفعتا لواء هذا المبدأ. إلا أن اتفاق كل من ساتسوما وتشوشو في هدف طرد الأجانب من اليابان لم يمنع من تنافسهما على السلطات داخل البلاط الإمبراطوري، وذلك ما أدى إلى حدوث حركة «١٨ أغسطس». وهذه الحركة حدثت في ذلك اليوم من عام ١٨٦٣م (٣ من بونكيو)، وفي هذه الحركة تمكن المعسكر الذى ينادى بالتنسيق بين البلاط والباكفو، وهو المعسكر الذى تقوده كل من مقاطعتي أيزو Aizu (محافظة فوكوشيما) وساتسوما، تمكن هذا المعسكر من طرد معسكر تشوشو المتشدد من العاصمة كيوطو، وذلك حينما هاجم محاربو هذا المعسكر محاربي مقاطعة تشوشو وهزيمتهم، مما أدى إلى نزع مهمة حماية القصر الإمبراطوري من مقاطعة تشوشو، وبالتالي ارتفاع اللواء المنادى بالاندماج بين القصر والباكفو. وكذلك تم إبعاد أتباع تشوشو وإرجاعهم إلى مقاطعتهم مع سبعة من النبلاء الذين كانوا يناصرونهم وفي مقدمتهم الأمير سانجى سانى تومى Sanji Sanetomi (١٨٣٧م - ١٨٩١م)، وبذلك انتصر معسكر ساتسوما المنادى بتبجيل الإمبراطور وطرد الأجانب ولكن على أساس إصلاح حكومة الباكفو وليس إسقاطها كما كان ينادى جناح تشوشو.

٨ - واقعة فندق إيكيدا وبوابة هاماجورى:

ولكن على الرغم من سقوط نفوذ مقاطعة تشوشو فى كيوطو، فإن هذا لم يمنع الدعوة لإسقاط حكومة الباكفو بين بعض المحاربين فى عاصمة البلاد كيوطو. وبالفعل اتخذ هؤلاء المحاربون المعارضون للباكفو من الفندق اليابانى التقليدى «إيكدا» مقراً لهم يعقدون فيه اجتماعاتهم السرية. وقد قامت هذه المجموعة بعقد اجتماع فى الخامس من يونيو ١٨٦٤م، وناقشت المجموعة فى هذا الاجتماع ابتداء التحرك للسيطرة على كل كيوطو، إلا أن هذه الخطة تم التعرف عليها من جانب الجماعة الموالية للباكفو التى كانت تتحكم بالفعل فى أمن المدينة. ثم باغتت جماعة «الشينسن جومى Shinsengumi» بقيادة كوندو إيسامى

Kondo Isami (١٨٣٤م - ١٨٦٨م) المجموعة المناهضة للباكفو فى فندق إيكيدا فى اليوم ذاته. وبعد معركة حامية الوطيس قُتل ٧ من المحاربين من بينهم قائدان من كل من كوماموتو وتشوشو. وبذلك تكون الجماعة المناوئة للباكفو قد تلقت ضربة موجعة واستطاعت جماعة الشنسن جومى بعد هذا الانتصار أن تحقق سلطات أوسع من أجل تعقب المحاربين الراغبين فى إسقاط الباكفو.

كان ارتفاع أسهم مقاطعة ساتسوما فى كيوطو وقيادة محاربيها لحركة ١٨ أغسطس السبب الكافى لإغضاب مقاطعة تشوشو المنافس اللدود لها. ولذلك أرادت تشوشو الانتقام لنفسها واستعادة دورها المفقود فى كيوطو، وعليه فقد تقدمت قواتها التى تعد بالآلاف والتى كانت متمركزة لتوها فى أوساكا بعد حادثة إيكيدا تقدمت نحو كيوطو فى شهر يوليو ١٨٦٤م مطالبة باستعادة دورها فى حراسة القصر الإمبراطورى وفك حصار النبلاء السبعة المبعدين عن العاصمة منذ حادثة إيكيدا. ثم حدث ما كان متوقفاً فقد تصادمت قوات تشوشو مع قوات كل من ساتسوما وأيزو اللتين تقومان بحراسة العاصمة (كيوطو آنذاك) والقصر الإمبراطورى. بل لقد حدث التصادم فى كل أنحاء العاصمة تقريباً، ولكن الصدام الأكبر والأعنف كان بالقرب من بوابة هاماجورى التى تطل على الشارع الشهير كاراسوما، ولذلك سميت هذه المعركة التى دارت بين القوتين المتصارعتين باسم هذه البوابة «Hamagurigomon nohen»، ثم ما لبثت أن انهزمت تشوشو فى كل أنحاء المدينة. وراح ضحية هذه المعارك عدد من قادة الحملة من أجل طرد الأجانب وإسقاط الباكفو فى مقدمتهم ماكى إيزومى (١٨١٣م - ١٨٦٤م). وقد أدت هذه المعركة إلى ازدياد العداء بين كل من تشوشو وساتسوما على الرغم أنهما ابتدأتا على هدف واحد وهو تبجيل الإمبراطور وطردهم من الأجنبي.

وكان الأحداث أبت إلا أن تزيد أحزان تشوشو على أحزانها السابقة نتيجة هزيمتها فى معركة هاماجورى. فبعد هذه الهزيمة مباشرة أمرت حكومة الباكفو فى إيدو إحدى وعشرين مقاطعة فى غرب اليابان بالهجوم على تشوشو تحت قيادة حاكم مقاطعة أوارى السابق طوكوجاوا يوشى كاتسو Tokugawa Yoshikatsu (١٨٢٤م - ١٨٨٣م)، إلا أن هذه الهجوم لم ينفذ بالفعل.

ومما زاد من وطأة الأحداث على تشوشو ذلك الهجوم الذى قامت به أربع دول غربية هى إنجلترا وأمريكا وفرنسا وهولندا، وذلك رداً على الإجراءات التى اتخذتها المقاطعة فيما

يتعلق بموضوع طرد الأجانب فى العام السابق (١٨٦٣م)، وفى هذا الهجوم احتلت القوات الأجنبية طوابى مدينة شيمونوسكى وأحدثت دماراً رهيباً بالمدينة.

وهكذا وجدت تشوشو نفسها تتلقى الضربات من الداخل ومن الخارج على السواء، فلم يكن أمامها سوى الاستسلام. وبالطبع كان هذا الهجوم لصالح الباكفو حيث إنه أضعف أشد أعدائها، ولم تجد الباكفو فائدة من الهجوم على تشوشو حيث قام بهذا الدور الدول الغربية فانتهى ما تعارف عليه فى التاريخ اليابانى باسم «الإخضاع الأول لتشوشو» دون استخدام فعلى للقوة من جانب الباكفو. وحُفظت إلى حين سطوة الباكفو وسلطاته وانخفضت أصوات المتشددىن من المطالبىن بإسقاط الباكفو أو هكذا بان للعيان، إلا أن هذا سيثبت عدم صحته مع مرور سنوات قليلة فيما بعد وهذا ما سوف نراه فيما يلى من أحداث.

وعلى أية حال، فقد أدت هذه الظروف الصعبة التى أحاطت بمقاطعة تشوشو (محافظة ياما جوتشى) إلى إمساك المجموعة المهادنة للباكفو بمقاليده الأمور فى المقاطعة، وحاولت إرضاء الباكفو بكل جهدها. فقامت بالقبض على سبعة من المسئولين عن حادثة هاماجورى، وأجبرت ثلاثة منهم على الانتحار على طريقة شق البطن وأعدمت الأربعة الباقىن، كذلك أجبرت حكومة الباكفو حاكم المقاطعة مورى تاكاتشىكا Mori Takashika على تقديم خطاب اعتذار لما بدر من مقاطعته من عصيان حيالها.

٩ - كل الطرق تؤدى إلى إسقاط الباكفو:

لقد شكلت الأحداث التى وقعت فى الأعوام الثلاثة الأخيرة من عمر الباكفو الأسباب الرئيسية لانتهيار هذا النظام الذى استمر لنحو مائتىن وستىن عاماً منذ أسسه الشوجون طوكوجاوا إيياسى Tougawa Ieyasu (١٥٤٢م - ١٦١٦م). وقد تمثلت هذه الأحداث فى شكل داخلى وآخر خارجى فى الوقت ذاته بل لقد كان لتتابعها أيضاً أثره الكبير فى التعجيل بانتهيار حكومة الباكفو.

فعلى الصعيد الداخلى تصاعد السخط على حكومة الباكفو فى مقاطعة تشوشو، وفشلت الباكفو فى حملتها الثانية التى بدأتها على تشوشو فى إبريل ١٨٦٥م، وانتهت إلى فشل وهزيمة نكراء أمام جيش تشوشو المسلح بالأسلحة الغربية، وذلك فى منتصف عام ١٨٦٦م. وعلى الصعيد الداخلى أيضاً عانت الباكفو من العديد والعديد من الثورات والهوجات بسبب نقص الطعام وغلاء الأسعار. أما على الصعيد الخارجى فقد واجهت مشاكل عديدة

وخاصة مع إنجلترا التي التقطت قنصلها في اليابان باكسي مدى ضعف الباكفو، فعملت على إحلال سلطات الإمبراطور بدلاً من الباكفو.

وهكذا لم يُعطِ تلامذ الأحدث وتدافعها سواء أكان داخلياً أم خارجياً الفرصة لحكومة الباكفو حتى تأخذ الفرصة لإعادة حساباتها واستعادة مجدها الذي أصبح أوفوله حتمياً. ولكن كيف حدث هذا بالتفصيل: هذا ما سوف نتناوله فيما يلي :-

ففي تشوشو لم يستسلم المعسكر المتشدد تجاه الباكفو، وهذا المعسكر المتشدد كان يمثلته صغار المحاربين من أمثال كاتسورا كوجورو Katsura Kogoro (١٨٣٣م - ١٨٧٧م) الذي تسمى فيما بعد باسم كيدو تاكا يوشى Kido Takayoshi. والظريف أن هذا الرجل هو جد للسياسى الشهير كيدو كويتشى (١٨٨٩م - ١٩٧٧م) الذى كان مستشاراً للإمبراطور هيروهيتو فى أثناء الحرب العالمية الثانية وكان من صقور الساسة اليابانيين، المساندين والمؤيدين للحرب ضد الحلفاء فيما بعد، أى أن الحفيد لم يختلف كثيراً عن الجد فى التشدد. وإلى جانب كاتسورا اشتهر أيضاً تاكاسوجى شينساكو Takasugi Shinsaku (١٨٣٩م - ١٨٦٧م) وقد كان كذلك من الحزب المناوئ للأجانب ومناصرًا للإمبراطور، ولكن لوفاته المبكرة بسبب المرض لم ير سقوط الباكفو.

على الرغم من استسلام كبار رجالات مقاطعة تشوشو من حاكم المقاطعة إلى المسؤولين الكبار فإن هذا المعسكر المتشدد لم يستسلم كما ذكرنا، وعلى الرغم من الظروف القاسية التى واجهت هذا المعسكر فقد صمم على مواصلة المسيرة ضد الباكفو. وكذلك لم يياس هؤلاء المحاربون الصغار بعد هزيمة تشوشو فى معركةها أمام الأساطيل الغربية، بل وجدوا أن هناك ضرورة حتمية لتضافر جهود كل أطراف المقاطعة من محاربين ومزارعين وتجار وغيرهم، وذلك من أجل إنقاذ مستقبل هذه المقاطعة العنيدة. فكان أن تعاونوا جميعاً وأنشأوا جيشاً أطلقوا عليه اسم (القوات المباغثة - Kiheitai). وعبر عدة تجارب من الانتفاضات والثورات والمعارك العسكرية سواء ضد الباكفو أو ضد الغرب استطاع الجيش المباغث هذا أن يطور من نفسه وأن يزيد من عدد جنوده وعدد وحداته أيضاً. وبذلك استطاع تاكاسوجى وصحبه قيادة هذا الجيش للاستيلاء على قلاع مدينة هاجى فى شمال تشوشو. واستطاع هذا الجناح المتشدد أن يبعد الجناح المهادن من كبار المسؤولين ثم يقبض على مقاليد الأمور فى المقاطعة. إلا أنه على الرغم من ذلك لم يكن يستطيع مواجهة الباكفو مواجهة صريحة

أو لعله أجل هذه المواجهة إلى وقت آخر. ولذلك فقد عمل هذا الجناح على التظاهر بالولاء والطاعة للباكفو وهو في الحقيقة كان يهيئ نفسه للاستقلال عن الباكفو، فكان لابد له من تطوير قواته وتقويتها.

وبالفعل جاءت هذه الخطوة المهمة عن طريق مقاطعة ساتسوما، فقد تقربت ساتسوما إلى حد بعيد من إنجلترا بعد هزيمتها أمامها. ولذلك حصلت تشوشو على الأسلحة الإنجليزية الحديثة عن طريق ساتسوما، ويرجع الفضل في التقارب ما بين ساتسوما وتشوشو بعد النزاع الطويل بينهما إلى المحارب الشهير ساكاموتو ريوما Sakamoto Ryoma (١٨٣٥م - ١٨٦٧م) وهو من مقاطعة طوسا (محافظة كوتشي).

على أية حال، استطاعت مقاطعة تشوشو الحصول على الأسلحة الإنجليزية عبر شركة نقل بحري يديرها ساكاموتو ريوما في مدينة ناجاساكي التي تقع في مقاطعة ساتسوما (كاجوشيما) ثم حملت هذه الأسلحة إلى تشوشو، وكان هناك في ناجاساكي العديد من التجار الإنجليز حيث فتحت لهم ساتسوما أبوابها للتجارة، فقام هؤلاء التجار وأشهرهم تاجر يدعى جلوفر (Glover ١٨٣٨م - ١٩١١م) بإمداد تشوشو بأحدث الأسلحة الغربية. ولكن في جزيرة هونشو بعيداً عن ناجاساكي وتشوشو كانت الدول الأجنبية تلعب دوراً آخر من أدوار الاستعمار المستغل دائماً؛ فقد أغرت حالة الضعف التي آلت إليها حكومة الباكفو والتفكك الواضح بين مختلف الجهات اليابانية؛ أغرت الدول الغربية بممارسة ضغوطها على حكومة الباكفو؛ فتجمعت أساطيل دول التحالف الأربع إنجلترا وأمريكا وفرنسا وهولندا بطريقة فجائية في خليج أوساكا في سبتمبر ١٨٦٥م، وتقدمت الدول المتحالفة بمطالب ثلاثة هي:-

١ - فتح ميناء هيوغو (كوبي الآن) وأوساكا على وجه السرعة.
٢ - الحصول على موافقة رسمية من البلاط الإمبراطوري على المعاهدات التجارية التي أبرمتها حكومة الباكفو.

٣ - تخفيض الجمارك على السلع المستوردة من الغرب.
وبالفعل تم فتح الميناءين أمام الملاحة الغربية، إلا أن ميناء هيوغو تم افتتاحه بعد عامين من طلب الدول الغربية. وتم أيضاً الحصول على الموافقة الرسمية من البلاط الإمبراطوري على المعاهدات التجارية التي وقعتها اليابان مع دول الغرب الخمس (Ansei Nogokakoku)

(Jōyaku)، أما فيما يتعلق بموضوع تخفيض الجمارك فقد تم هذا بالفعل على أن يكون التخفيض من ٢٠٪ إلى ٥٪ فقط على كل البضائع، وهذا بالطبع تخفيض مبالغ فيه. وبهذا اقترب موقف اليابان ليصبح مشابهاً إلى حد كبير من موقف الصين بعد هزيمتها في حرب الأفيون. بل يرى الكثيرون من المؤرخين أن اليابان كانت على شفا الوقوع أسيرة للاستعمار الغربي، بسبب هذه الضغوط الغربية. إلا أن مرونة اليابانيين في الموافقة على مطالب الغرب ذهبت بذرائع الغرب وأضعفت حججهم.

ومن ناحية أخرى، اجتمع عدد من زعماء المقاطعات الكبرى في غرب اليابان بدعوة من الزعيم الوطني العظيم ساكاموتو ريوما في مقر مقاطعة ساتسوما بالعاصمة كيوتو وذلك في يناير ١٨٦٦م. وفي هذه الاجتماعات أوضح ساكاموتو لجميع الزعماء أن على كل المقاطعات في اليابان أن تتخطى حدود المقاطعة وتتنظر إلى مصلحة اليابان العليا في مواجهة الخطر الغربي الداهم، ولا بد للجميع أن يتعاونوا من أجل إنقاذ اليابان. وعليه فقد اتفق الجميع على نسيان ما حدث من نزاع في الماضي، وخاصة ذلك النزاع الذي كان بين ساتسوما وتشوشو أكبر وأقوى مقاطعتي الغرب الياباني. وكذلك اتفق الطرفان على أن تساعد ساتسوما وتشوشو وتمدها بالأسلحة في حربها الدائرة ضد الباكفو. وفي هذا النزاع الدائر بين الباكفو وتشوشو، تغير موقف الدول الأجنبية التي كانت تتظاهر بالحياد، فقامت إنجلترا بتأييد موقف كل من ساتسوما وتشوشو، وذلك بعد أن اقتنع قنصل إنجلترا في اليابان باركس (Parkes ١٨٢٨م - ١٨٨٥م) بأن دور الباكفو في حكم البلاد بدأ يضعف. ولذلك فإن إنجلترا تطلعت إلى نظام سياسى جديد يمسك بمقاليد تحالف المقاطعات الكبرى ولكن بقيادة من البلاط الإمبراطورى. أما فرنسا فرأت أن تعضد موقف الباكفو الداخلى والخارجى. ورأى قنصل فرنسا فى اليابان (روشييه Roches ١٨٠٩م - ١٩٠١م) أن بلاده لا بد أن تساعد حكومة الباكفو اقتصادياً وعسكرياً ولذلك قدمت لها قرصاً قيمته ٦ ملايين دولار. وهكذا تعارض موقفا كل من إنجلترا وفرنسا تجاه اليابان، وذلك مما أدى إلى تفاقم الصراع بين كل من البلاط الإمبراطورى والمقاطعات الكبرى من ناحية والباكفو من ناحية أخرى، مما يعنى تعاطم خطر تدخل القوى الأجنبية فى اليابان.

١٠ - الباكفو وتراجيديا النهاية:

عندما وصلت الأخبار إلى حكومة الباكفو بأن عدوتها اللدود مقاطعة تشوشو تبذل قصارى جهدها من أجل الحصول على مختلف أنواع الأسلحة من الدول الأجنبية من أجل بناء

جيش قوى تابع لها، فإن الباكفو اشتعلت غضباً وصممت على عقاب هذه المقاطعة المتمردة. لكن رد الفعل من جانب الشوجون وحكومته اتسم بالتفاخر والمظهيرية، فقد قام الشوجون إييموتشى على رأس موكب مهيب يتقدم جيشه إلى قلعة أوساكا. وظن إييموتشى وأتباعه أن هذا الموكب المهيب كافٍ لإخافة تشوشو، وأنها سوف ترتدع مثلما حدث فيما سبق من خلال حملة لإخضاع تشوشو الأولى التي انتهت دون قتال، وأنها سوف تخضع لحكومة الباكفو مرة أخرى. ولكن كانت الأوضاع في هذه المرة مختلفة تماماً فقد حدث التوافق بين تشوشو وساتسوما وحصلت أيضاً على أسلحة متطورة وأعدت جنودها إعداداً جيداً فأصبحت تشوشو تنتظر على أحر من الجمر هذا اللقاء الحاسم مع جيش الباكفو.

وفى مقابل هذا، ماذا كانت حكومة الباكفو قد أعدت غير الموكب المهيب؟! فى الحقيقة إن روح القتال منذ البداية لم تكن محتدمة عند الباكفو وجنودها، وزاد على ذلك حدوث الاضطرابات والثورات فى المدن والقرى بسبب الكساد الذى عم البلاد وكذلك زيادة أسعار الأرز، ومن أجل تهدئة الأحوال فى البلاد قامت مختلف المقاطعات بمجهودات لا بأس بها ولكنها رأت بسبب هذه الأحوال أن الوقت ليس مناسباً لإخضاع تشوشو. وكان عدد المقاطعات التى أبدت اعتراضاً واضحاً أو قابل حملة الباكفو على تشوشو بطريقة سلبية أكثر من عدد تلك التى وافقت عليها. ولكن كان أبرز شئ، فى الحملة الثانية على تشوشو هو وقوف ساتسوما العدو القديم لتشوشو إلى جانبها ضد جيش الباكفو. وفى المقابل فقد بدأ معسكر تشوشو مستعداً تمام الاستعداد من كل النواحي حتى لدرجة الاستعداد الإعلامى لشحن الجماهير من أجل مواجهة الباكفو، فقامت سلطات المقاطعة بإعداد كتيب صغير طبعت منه ٣٦٠ ألف نسخة وزعته فى داخل المقاطعة وخارجها. وبالفعل كان لاشتراك الجماهير بمختلف مشاربها فى الحرب ضد جيش الباكفو أثره الواضح فى التغلب وانتصار جيش تشوشو على جيش الباكفو. كذلك استطاع جيش تشوشو استغلال ثورات الفلاحين لصالحه عندما كان يمدهم بالأرز وهو أهم غذاء لدى الفلاح وكذلك بالمال حتى استطاع بذلك كسب ودهم وتأبيدهم. أما الثورات التى كانت تقوم ضد تشوشو وجيشها فقد استطاع الجيش إخمادها بحزم. وبعد نحو شهرين فقط من بدء المعارك وفى خضم سلسلة من الهزائم تلقاها جيش الباكفو توفى الشوجون إييموتشى فى قلعة أوساكا فى ١١ أغسطس ١٨٦٦م، وبعد عشرة أيام فقط من وفاته أعلنت الهدنة. وبعد أن تولى الشوجون الخامس

عشر طوكوجاوا يوشى نوبو الشوجونية اتخذ من وفاة الشوجون الراحل فرصة لإعلان نهاية حملة الباكفو على تشوشو ولكن بعد أن تلقت الباكفو سلسلة من الهزائم وكانت على وشك تجرع كأس الهزيمة الشاملة لولا أن أنقذها من ذلك وفاة إيموتشى. ولكن كان من أهم نتائج هذه الحملة الثانية هي إظهار ضعف وهوان حال الباكفو أمام الجميع.

وهكذا وخلال سنوات قليلة واجهت الباكفو عدة تحديات سياسية وعسكرية سواء خارجية أو داخلية، وحتى يكتمل مشهد الأحزان على مسرح نهاية الحقبة الشوجونية جاءت الثورات والهوجات التي قام بها الفلاحون فى القرى وسكان المدن كذلك، وعلى الرغم من حدوث الكثير والعديد من الثورات والاضطرابات طوال عصر إيدو فإن هذه الفترة الأخيرة من هذا العصر تميزت بأكبر عدد منها وعلى الأخص كان عام ١٨٦٦م هو عام الثورات الأكثر عدداً والأضخم حجماً، فقد بلغ عدد الثورات والاضطرابات فى جميع أنحاء البلاد ما يزيد على مائة وثمانين. ولكن لوحظ أن فى معظم هذه الثورات والهوجات تكررت بكثرة عبارة «إصلاح البلاد» (Yonaoshi) وكانت الجماهير تعنى بذلك ضرورة إصلاح أحوال وسياسات الباكفو ومختلف المقاطعات من الأساس مشيرة بذلك إلى حال الفساد والحياة التي لا تطاق بسبب زيادة أسعار مختلف السلع منذ ابتداء التجارة مع الدول الغربية وكذلك بسبب الحرب الثانية التي شنتها الباكفو على مقاطعة تشوشو، مما أدى إلى زيادة أسعار سلع كثيرة أساسية مثل الأرز وعجينة الميصو (فول الصويا) والساكى (الخمير اليابانى) إلى ضعفى السعر الذى كانت عليه فى عام ١٨٦٥م.

وقد عبرت جموع المواطنين اليابانيين وعلى الأخص سكان المدن عن استيائهم من الأوضاع التي وصلت إليها الحالة الاجتماعية والسياسية فى البلاد بأغنية أطلق عليها «افعل ما بدا لك» أو ما يمكن وصفه بالتعبير الدارج «كله ماشى»، وليس على أحد حرج إذا ما شرب ما ليس له وإذا ما أكل ما ليس له وإذا ما أخذ ما ليس له، فكل شىء مباح (Ejjanaika). وبدأت هذه الأغنية فى أواخر شهر أغسطس عام ١٨٦٧م فى منطقة ناجويا، حيث ثارت إشاعة مفادها أن بطاقات تسقط على رؤوس الناس لإسعادها فى معبد إيسى Ise jingu، ثم انتشرت هذه الشائعة وتلك الأغنية كما تنتشر النار فى الهشيم فى معظم أنحاء البلاد، ولم يقتصر الأمر على الشباب والشابات فقط، بل شمل العجائز والأطفال والنساء. وارتدى الرجال أزياء النساء وحدث العكس للنساء حيث ارتدين ملابس

الرجال وطالب الناس من خلال هذه الأغنية إصلاح البلاد (Yonaoshi) وكان البعض منهم يقتحم بيوت من لا يعجبون به أو يكرهونه من أصحاب الأراضي والتجار الكبار، ويطالبونهم بإخراج الطعام والشراب المتمثل معظمه في السمك والخمر الياباني الساكي. وفي بعض الأحيان كانوا يأخذون الملابس والأدوات المنزلية وغيرها صائحين: «ماذا يجري لو أخذنا ذلك» أو بالأحرى افعل ما بدا لك فكل شيء مباح.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الهوجة المزوجة بالمزاح والغناء لم تصل في قوتها وعنقوانها إلى درجة العنف والقوة التي كانت عليها ثورات الفلاحين. وعلى الرغم من ذلك فقد أدت هذه الظاهرة إلى إحداث شلل في أوصال حكومة الباكفو، وهي بذلك أوضحت مدى الإيجابية في سلوك جموع سكان المدن فكان لها تقدير خاص. كذلك ارتبطت عبارة «إصلاح البلاد» أو «إنقاذ البلاد» بالفكر الديني البوذي حيث اعتقد الناس آنذاك إن إلهاً منقاداً سوف يأتي لتخليص البلاد من ورطتها وأزمتهما. وكان في ذلك إسقاط واضح على فساد حكومة الباكفو وعدم صلاحيتها، ولذلك يُعتقد أن دعاة إسقاط الباكفو كان لهم يد في دفع هذه الظاهرة إلى الأمام حتى يتمكنوا من إسقاطها على أساس ديني وشعبي أيضاً.

وهكذا أعطت هذه الهستريا التي تفشت في البلاد إشارات واضحة أن عصر الطوكوجاوا قد أعلن نهايته ولم يتبق إلا وقت ليس طويلاً حتى ينتهي رسمياً، وذلك على الرغم من أن الشوجون الخامس عشر يوشينويو قد قام بجهود من أجل إصلاح النظام العسكري اعتماداً على فرنسا. ولكن من ناحية أخرى ففي كيوطو توفي الإمبراطور كومي في ديسمبر ١٨٦٦م، وكان هذا الإمبراطور من أشد المعارضين لحركة إسقاط الباكفو، ثم تولى من بعده الإمبراطور الصغير السن ميجي فتغيرت الأحوال وظهرت حركة تدعو لإسقاط الباكفو ولو باستخدام القوة المسلحة. وإلى جانب ذلك تكاثفت جهود التحالف ما بين ساتسوما وتشوشو ومعهما عدة مقاطعات أخرى وتعاهدوا فيما بينهم على الإعداد من أجل التغيير.

وإلى جانب ذلك كانت هناك جهود فردية من أجل مستقبل جديد لليابان، وتمثلت هذه الجهود وتبلورت فيما عُرف بـ «مبادئ السفينة الثمانية» التي قام بإخراجها البطل القومي الياباني ساكاموتو ريوما (١٨٣٥م - ١٨٦٧م). وقد سميت هذه المبادئ الثمانية بذلك لأن ريوما قام بكتابتها في أثناء رحلته في السفينة من ناجاساكي إلى كيوطو في يوليو ١٨٦٧م. وهذه المبادئ الثمانية هي كما يلي: -

- ١ - إعادة السلطات إلى البلاط الإمبراطورى.
- ٢ - اختيار المستشارين من بين عناصر البلاد المتميزة من الأفراد وحكام الأقاليم وغيرهم.
- ٣ - إنشاء المجالس العليا والصغرى، ثم ممارسة السياسة عبر هذه المجالس جميعاً على أساس من المناقشات العامة.
- ٤ - إعداد دستور يكون الأساس لأمة جديدة.
- ٥ - إعادة الارتباط بالدول الأجنبية بمعاهدات متوازنة من جديد.
- ٦ - تقوية الجيش البحرى.
- ٧ - إيجاد نظام تجنىدى جديد لحماية العاصمة.
- ٨ - العمل على جعل قيمة الذهب والفضة وكذلك أسعار السلع مساوية لتلك التى فى الخارج.

وتعتبر الخطوة التى قام بها الشوجون الخامس عشر والأخير يوشينوبو وذلك بترك مقاليد الأمور للإمبراطور هى أهم ثمار سياسة السفينة النموذجية التى فكر بها ريوما. إلا أنه للأسف أن هذا الفكر والبطل القومى اليابانى سرعان ما سوف يُغتال بعد إخراج لهذه المبادئ فى نوفمبر من العام نفسه ومعه صديق الكفاح «ناجا أوكا اشينتارو» (١٨٣٨م - ١٨٦٧م) وهما بعد لا يزالان فى ريعان الشباب. وهكذا أريق دم هذا المناضل الذى طالما نادى بإقامة الحكومة الجديدة بدون إراقة للدماء.

وكان ريوما بعيد النظر فى سياسة السلم التى نادى بها من أجل التغيير، لاسيما أنه كانت هناك مقاطعات كثيرة تؤيد الباكفو، وإذا حدث التغيير باستخدام العنف والقوة فإن هنا سوف يكون السبب فى حدوث حرب أهلية لا يعلم مداها سوى الله، خاصة مع حالة الفوران والهوجات التى كانت عليها البلاد آنذاك.

وبين حالة من التآرجح ما بين استخدام القوة المسلحة لإسقاط الباكفو والتى كانت تدعو لها مقاطعات مثل ساتسوما وتشوشو والتغيير عن طريق السلم استمر الوضع الملتهب حتى يوم ١٤ أكتوبر عام ١٨٦٧م عندما أخذ بزماء المبادأة الشوجون الأخير طوكوجاوا يوشينوبو وأعلن إعادة مقاليد الحكم للبلاط الإمبراطورى (Tai Seihokan)، وذلك بتوصية ونصيحة من حاكم مقاطعة طوسا السابق ياما أوتشى طويو شيجى (١٨٢٧م - ١٨٧٢م) نقلها إلى الشوجون السياسى جوطو شوجيرو (١٨٣٨م - ١٨٩٧م). ولكن ساتسوما وتشوشو

أبتأ إلا أن يأتي هذا القرار وذلك التغيير إلا عبر أمر يصدر عن البلاط الإمبراطورى وليس بمبادرة من الشوجون الأخير. وبالفعل صدر الأمر الإمبراطورى بإسقاط الباكفو فى ٩ ديسمبر من العام نفسه، وجاء كالآتى :-

تلغى الباكفو (وهذا شىء حتمى) والوصى على العرش وكذلك مساعد الإمبراطور ويتم إنشاء ثلاث وظائف بدلاً منها هى : الحاكم العام ومنصب الياوران ومنصب المستشار، ويقوم الإمبراطور بتسيير الأمور السياسية بنفسه. ثم من الآن فصاعدا تعود الأمور كسابق عهدها فى الماضى بمعنى أن يتعاون الأمراء العسكريون مع بعضهم البعض. ويمارسون سياسة جديدة على أن يتحروا المساواة فى المناقشات العامة من أجل تطبيق هذه السياسة الجديدة. وهذا الأمر الإمبراطورى هو ما عرف فى التاريخ اليابانى باسم فرمان الأكبر لاستعادة حكم الإمبراطور. وهكذا انتهى عصر الطوكوجاوا وحكومته العسكرية (Bakufu) التى استمرت لمدة ٢٦٥ عاماً، ليبدأ عهد جديد يكون فيه الحكم ومقاليد فى يد الإمبراطور. وطبقاً لهذا فرمان فقد عين فى منصب الحاكم العام الأمير أريسو جاوا نوميا تاروهيتو، وهو ذلك الأمير الذى ذكرناه آنفاً، والذى انتزعت منه خطيبته الأميرة كازونوميا حتى تزف للشوجون إييموتشى لكى يتم الاتحاد ما بين البلاط الإمبراطورى والحكومة العسكرية وذلك قبل نهاية الباكفو بنحو خمس سنوات. وكذلك تم تعيين فى مناصب توازى الوزير اثنين من الأفراد وثلاثة من النبلاء وخمسة من حكام المقاطعات الكبرى السابقين والحاليين. وفى منصب المستشارية عُين رجل البلاط السياسى القدير إيواكورا طومومى Iwakura Tomomi (١٨٢٥م - ١٨٨٣م) ومن المقاطعات ذات النفوذ عين ممثلاً عن ساتسوما سايجو تاكا مورى (١٨٢٧م - ١٨٧٨م) الذى سوف ينقلب على حكومة الميجى بعد ذلك. وعين كذلك من ساتسوما أوكوبوتوشى ميتشى Ookubo Toshimichi (١٨٣٠م - ١٨٧٨م). ومن مقاطعة طوسا عين كل من جوطوشوجيرو Gotō Shōhiro (١٨٣٨م - ١٨٩٧م) وفوكوأوكا تاكاتشيكا (١٨٣٥م - ١٩١٩م).

وهكذا بدأ رجال العهد الجديد عملهم وأسدلوا بسلام الستائر على عصر إيدو الملىء بالتناقضات والنزاعات والصراعات أو هكذا بدا لهم، وبدا للوهلة الأولى أن رغبة جناح ساتسوما وتشوشو الذى نزع لاستخدام القوة من أجل إسقاط الباكفو قد أصبحت غير ممكنة. ولكن هل يمكن أن ينتهى عصر من الصراعات الطويلة بكل هذه السهولة؟ وهل تتلاشى

بالفعل أحلام المتشددين بهذه المرونة ، وهم الذين كانوا يملكون الأسلحة الحديثة والطموح الجارف؟ هذا ما سوف نتعرف عليه عند الحديث عن بدايات العهد الجديد، عهد مييجى .

١١ - ثقافة نهاية عصر الطوكوجاوا:

لا يستطيع حتى الجاحد أن ينكر أن فترة نهاية الباكفو كانت بمثابة المخاض الحقيقي والإرهاص الفعلى لنهضة مييجى . ففي خضم الأحوال السياسية المضطربة والفوضى القائمة ، أخذت الباكفو بتوطيد علاقاتها مع أمريكا وأوروبا . ومن أجل تدعيم موقفها الداخلى وتأكيد استقلال اليابان أخذت حكومة الباكفو فى إدخال العلوم والتكنولوجيا الحديثة عازمة على تحديث البلاد . ففي بداية عصر الانفتاح على الغرب أو بالأحرى فتح البلاد على الغرب تم تطوير المؤسسة المعنية بترجمة الكتب الهولندية والتي أنشئت فى عام ١٨١١م إلى هيئة للترجمة مستقلة بذاتها ، وكان من أهم مهام هذه الهيئة ترجمة مختلف علوم اللغة والعلوم الطبيعية لكل الدول الغربية وكذلك ترجمة الخطابات والمبادلات الدبلوماسية ، حيث كانت خبرة اليابان فى هذا المجال حتى هذا الوقت فقيرة إلى حد كبير بسبب العزلة الطويلة التى ضربتها على نفسها ثم تطورت هذه الهيئة الخاصة بالترجمة إلى وضع أفضل وأكبر لتصبح هيئة تربوية لدراسة العلوم الغربية مع تغيير اسمها إلى Yōsho Shirabesho أى ما يعنى مركز الدراسات والبحوث الغربية ، وذلك فى عام ١٨٦٢م ، وفى العام التالى (١٨٦٣م) تم توسيع هذا المركز مع تغيير اسمه إلى Kaiseijo أى بمعنى مركز الانفتاح والإنجاز ، وفى هذا المركز تم إنشاء ٨ أقسام من أهمها قسم اللغات الأجنبية وقسم العلوم الطبيعية وقسم العلوم العسكرية ، وكلها تعتمد على العلوم الغربية وخاصة الهولندية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية وغيرها ثم تحول هذا المركز ليصبح مدرسة ثانوية باسم كايس جاكو (Kaisei Gakku) فى عام ١٨٦٨م على يد الحكومة الجديدة ، وفى عام ١٨٧٧م تحولت هذه المدرسة لتصبح جامعة طوكيو الإمبراطورية . وفى مجال الطب ، حدثت نهضة طبية عظيمة فى عام ١٨٦٠م تم وضع مركز تصنيع اللقاح ضد الجدرى الذى كان قد أقيم بجهود القطاع الخاص تحت إدارة الحكومة العسكرية فى إيدو ، وذلك لإمكان التطعيم الوقائى ضد الجدرى ، ثم تطور هذا المركز ليصبح مركزاً طبياً عاماً تُجرى فيه البحوث الطبية على أساس غربى .

ولما شعرت حكومة الباكفو أنه لا بد من دراسة أوضاع الغرب وعلومه وقوانينه واقتصاده على يد الطلاب اليابانيين عملت على إرسال عدد من أتباعها وغيرهم إلى مختلف البلاد

الغربية فأرسلت تابعها نيموطو تاكى آكى Nemoto Takeaki (١٨٣٦م - ١٩٠٨م) ونيشى أمانى Nishi Amane (١٨٢٩م - ١٨٩٧م) المدرس فى مركز الترجمة وتسودا ماكى Tsuda Maki (١٨٢٩م - ١٩٠٣م) ليدرسوا فى هولندا، وذلك فى عام ١٨٦٢م. وأرسلت إلى إنجلترا فى عام ١٨٦٦م ناكامورا ماساناو Nakamura Masanao (١٨٣٢م - ١٨٩١م)، الذى قام بترجمة العديد من أمهات الكتب الإنجليزية.

ولم تقتصر الجهود من أجل دراسة العلوم الغربية على حكومة الباكفو فقط، بل امتدت لتشمل مختلف المقاطعات. ففي عام ١٨٦٣م أرسلت مقاطعة تشوشو خمسة من مستخدميها إلى إنجلترا للدراسة هناك ومن أشهرهم إيتو هيروبومى Ito Hirobumi (١٨٤١م - ١٩٠٩م)، الذى سيصبح أول رئيس للوزراء فى اليابان عند إنشاء النظام الوزارى، وكذلك اشتهر أيضاً من تشوشو إينو أوى كائورو Inoue Kaoru (١٨٣٥م - ١٩١٥م) الذى سيصبح من أهم رجال العهد الجديد وسوف يتولى عدة مناصب مهمة من أهمها وزارة الخارجية فى الوزارة الأولى لايتهويريومى. وقام حينها بتطبيق السياسات الغربية وبذل جهداً وثيراً من أجل تعديل المعاهدات مع الغرب. أما مقاطعة ساتسوما فسوف ترسل تسعة عشر من أبنائها إلى إنجلترا فى عام ١٨٦٥م ومن أشهرهم جوداى طوموأتسو Godai Tomoatsu (١٨٣٥م - ١٨٨٥م) وترادا مونى نورى Terada Munenori (١٨٣٢م - ١٨٩٣م) ومورى أرى نورى Mori Arinori (١٨٤٧م - ١٨٨٩م) ذلك الفكر الذى سوف يميل بفكره ومعتقداته كثيرا نحو الغرب.

وبتلك الخطوات تكون حكومة الباكفو قد خططت نحو تخفيف سياسة المعاداة نحو الغرب، وكذلك تخفيف سياسة منع اليابانيين من السفر إلى خارج البلاد وبالفعل أصدرت أمراً صريحاً بالسماح بالسفر للخارج من أجل التحصيل العلمى والتجارة وغير ذلك، فقد سمحت حكومة الباكفو للمبشرين والصحفيين الأجانب بالمعيشة فى ميناء يوكوهاما، وقد قام هؤلاء بدور مهم بتعريف اليابانيين السياسة والثقافة الغربيتين. ومن بين المبشرين الذين أتوا إلى اليابان وقاموا بدور بارز وإيجابى فى نقل الثقافة الغربية لليابان اشتهر الطبيب الأمريكى جيمس هيبرون James Hepburn (١٨١٥م - ١٩١١م) فقد افتتح هذا الطبيب مركزاً للفحص الطبى ومدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية، وقام كذلك بوضع أول قاموس يابانى - إنجليزى وإنجليزى يابانى بالحروف اللاتينية. وأنشأ كذلك معهد ميجى عام

١٨٨٧م الذى تحول بعد ذلك إلى مدرسة ميغى الشهيرة عام ١٩٠٣م. وكذلك لم يبخل الإنجليز بجهودهم، فقد قام القنصل الإنجليزى أولكوك بتجميع المنتجات اليابانية الفنية والتقليدية وأرسلها إلى لندن لتعرض فى المعرض الدولى الصناعى عام ١٨٦٢م، وفى هذا الصدد قامت الباكفو أيضاً بالاشتراك فى معرض باريس الدولى وأرسلت أعمال الفنان التقليدى الشهير كاتسوشيكا هو كوساى Katsushika Hokusai (١٧٤٠م - ١٨٤٩م)، محاولة فى ذلك بذل الجهود من أجل الاعتراف الدولى بقيمة الثقافة والفن اليابانيين. وهكذا تغيرت تدريجياً أفكار العداء للأجانب ومحاولات طردهم من اليابان وتطورت الأفكار لتتحو نحو الاعتراف وتقليد الثقافة الغربية، وبالتالي اشتدت أصوات المطالبين بالتحديث بقوة. وهذا ما سوف يحدث على توسع كبير وضخم فى عصر ميغى لتقوم نهضة ميغى وتصبح بداية للعصر الحديث. وهذا ما سوف نتناوله فى الفصول التالية بإذن الله.

